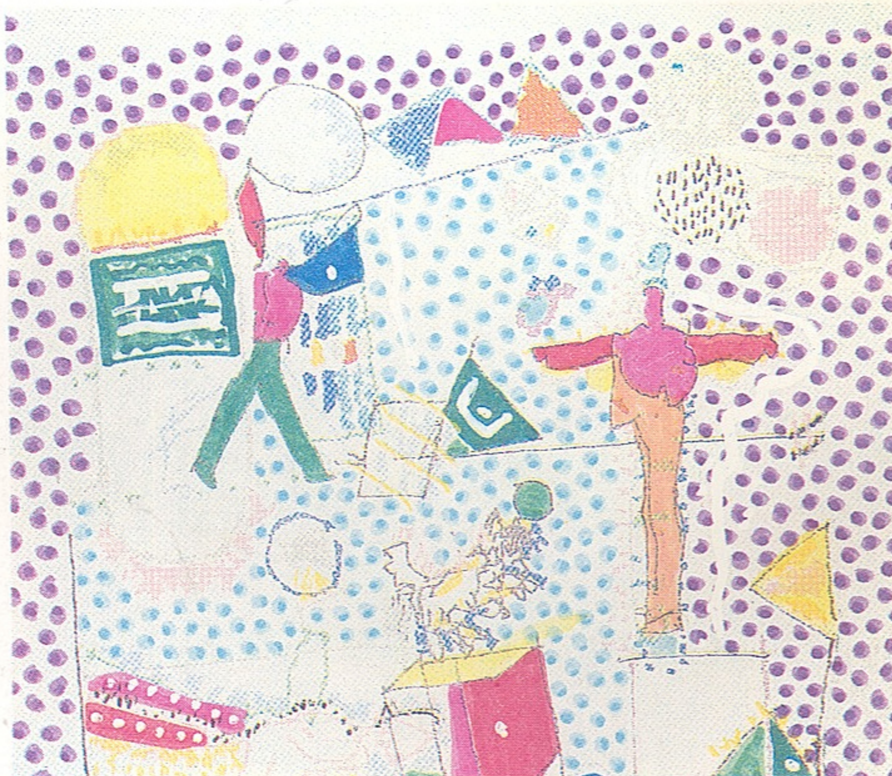
المواجهة

تخليص الابريز في تلخيص باريز
(١)



رفاعة رافع الطهطاوي

التنوير

رفاعة رافع الطهطاوي

التنوير

مقـدمة

من الرجال من ترتبط حياته بحقبة معينة ، وتتصل أعماله بما يشغل زمنه أوثق اتصال ، ويتشكل مصيره بمغزى الأيام التى عاشها ، فاذا هو جزء من التاريخ ، تطور تطوره ، ونما نموه ، واذا هو يبدو أمامنا وكأنه قد تقمص عصره وجسمه لنا فى صـــورة انســان . من الرجال من خصصت له أمته دورا كبيرا وانتظرته ليؤديه ، فأقبل فى الموعد المحدد ، وأظهر من الجدارة ما يعــادل الأمل المعقود عليه ، واستطاع أن يضطلع بمهمته حتى يكملها على خير وجه . من هؤلاء الرجال « رفاعة رافع الطهطاوى » ، فقد وجدت فيه مصر صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاسع عشر .

ما كاد ذلك القرن يبلغ عامه الأول حتى ولد رفاعة . وكانت الأقدار قد شاءت أن تجعل من هذا المولود ـ عندما يبلغ عمره ربع قرن ـ رحالة ترسله من الأزهر الى باريس ، ليعود ببذور النهضة الفكرية ويخرج مصر من ظلمات العصور الوسطى . بدأت الأقدار فدفعته ، وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، الى مغادرة مسقط رأسه وراء أبيه الذى فر الى قنا وفرشوط من الضائقة الاقتصادية التى أصابت الأسرة فى طهطا تنقل الغلام اذن من قرية الى قرية ، تارة على ظهر مطية من ذوات الأربع ، وتارة « على ظهر النيل المبارك » ، وتارة أخرى ماشيا على قدميه . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره ، صحبته الأقدار الى القــاهرة ، ليدرس فى الأزهر اقتداء بأخواله العلماء فراج الأنصــارى والشيخ أبى الحسن الأنصــارى والشيخ محمد الأنصارى ، وهم الذين تولوا تربيته فى طهطا بعد وفاة والده .

ولم تكن الرحلة من طهطا الى القاهرة سنة ١٨١٧ بالأمر الهين ، بل كانت تستغرق نحو أسبوعين شاقين من الملاحة البدائية ، وكانت فى نظر أهل ذلك العصر مغامرة جريئة ٠

وفى الأزهر شاءت الأقدار أن يتتلمذ الفتى الصعيدى على رجل رحالة ، وأديب مرموق هو الشيخ حسن العطار ، الذى كان يمتاز من بين أساتذة ذلك العهد بعقلية تقدمية تستطلع الحديث وتؤمن بالتطور ٠ كان حسن العطار عالما ، نتيجة لميله ورغبته ، فقد أحب العلم ونزع اليه على الرغم من ارادة أبيه الذى كان يود أن يورثه تجارته وعطارته ٠ لذلك أصبح العلم لديه معرفة توسع الفكر ، لا استظهارا واجترارا وتكرارا ٠ لقد احتل التفكير فى تدريسه محل الحفظ ، واحتلت الحركة فى حياته مكان الجمود ٠ كان قد اتصل به بعض ضباط بونابرت ليتعلموا اللغة العربية ، فلم يحتقرهم ولم ينبذهم ، بل جاورهم وحاورهم ، وعلمهم وتعلم منهم ٠ فطن الى أهمية كتبهم التى لاحظ ــ دون أن يستطيع قراءتها ــ أنها كتب منوعة تعالج شتى موضوعات الدنيا ، وفطن الى أهمية منهجهم المتحرر من منطق القرون الوسطى ، وبساطتهم المباشرة فى التعبير عن أفكارهم ، وأحس وتنبأ بضرورة تجديد الحياة العقلية فى القاهرة ، وكان مولعا بالجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش طريفة على كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفداء ، وكان يتحدث عن كثير من المدن حديثا شخصيا ممتعا ، فقد جال فى فلسطين وتركيا وأقام طويلا فى دمشق ٠

وشاءت الأقدار أن يؤدى هذا الأستاذ المستنير أخطر دور فى حياة رفاعة ، فقد بلغ رفاعة فى عام ١٨٢٦ الخامسة والعشرين من عمره ، وبلغ أيضا أقصى ما يستطيع أن يناله فى مصر فتى مثله ، فتصدى للتدريس بالأزهر ، واشتغل اماما لبعض فرق الجيش ولاحت فى حياته مرحلة الاستقرار ، بعد أن انتهت مرحلة التحصيل ٠ ولو قد اتصلت حياة رفاعة على ذلك النحو ، لكان من

المرجح ألا نسمع عنه شيئا ، ولما طابق مصيره مجرى التاريخ . فكم من أمثاله ولدوا فى طهطا وفى غير طهطا ، ثم تعلموا فى الأزهر على حسن العطار وعلى غير حسن العطار ، ثم اشتغلوا أئمة فى الجيش أو فى غير الجيش ثم ذهبوا دون أن يتركوا أثرا .

فى ربيع ذلك العام ، انتهز « محمد على » فرصة مرور السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) فكلف قبطانها « روبيار » (Robillard) أن يحمل معه الى مرسيليا أربعين شابا ليدرسوا فى باريس (١) . وينبغى أن نذكر فى وضوح أن رفاعة رافع الطهطاوى لم يرسله الى فرنسا محمد على وانما أرسله الشيخ حسن العطار .

كان محمد على لا يثق بالمصريين ، وكان يتخذ أعوانه من الأجانب يشتريهم صغارا كما كانت تشترى المماليك ، ويسلمهم فى القلعة الى شخص موصلى يدعى « حسن أفندى الدرويش » ومن بعده الى شخص آخر تركى يدعى « روح الدين أفندى » ليتعلموا الخط والحساب واللغة التركية الى جانب التمرينات العسكرية . وقد اعترف محمد على بذلك صراحة للقنصل الروسى (٢) . وهناك من الوثائق المحفوظة الآن فى القصر الجمهورى بعابدين ما لا يدع مجالا للشك فى اتجاهه الى تكوين طبقة أرستقراطية مشتراة بالمال ، تدين له وحده بالولاء ، ويحكم بواسطتها البلاد . لم يدخل مدرسة القلعة اذن الا عدد محدود من الصبية الأتراك والشراكسة والجيورجيين والأكراد والأرمن . ومن هذا الخليط العثمانى انتخب محمد على معظم أعضاء بعثته ، دون مراعاة لما ينبغى أن يتحقق فى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
Correspondance Consulaire,
Le Caire Vol. 26, Fo. 282, Le 4 Avril 1826.

(٢) René Cattaoui : Le règne de Mohamed Aly d'après Les arehires russes en Egypte. Le Caire, 1931, I, pp. 425-426.

طالب العلم من شروط الذكاء وحداثة السن والاستعداد • وحينما أوشكت البعثة على السفر ، أشـــار حسن العطار على الوالى بأن يضيف الى الطلبة اماما يسهر على شـئون دينهم فى تلك البـلاد البعيدة ، فلم يستطع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح • وهكذا عين حسن العطار تلميذه رفاعة اماما للبعثة •

وفى باريس ، اهتم « جومار » (Edme François Jomard) ، مدير البعثة ، بالشيخ الامام ، وجعله موضع عنـايته الخاصة • كان « جومار » مهندسا جغرافيا من علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم « بونابرت » الى ضفاف النيل ، وهو الذى أشرف فيما بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضم دراسات أولئك العلماء بعنوان « وصف مصر » (Description de l'Egypte) • وقد أصبح « جومار » رئيسا للجمعية الجغرافية ، وعضوا فى « المعهد الفرنسى » (Institut de France) ، ومحركا لكثير من الهيئات الثقافيـة والتربوية • ولم ينقطع اهتمامه بمصر ، بل اتصل مرارا بواليها الجديد « محمد على » ، وأفلح فى اجتذاب بعثاته الى باريس وكانت قد اتجهت فى أول الأمر نحو ايطاليا •

توسم « جومار » فى رفاعة الذكاء ، فوجهه الى الافادة من رحلته بدراسة اللغة الفرنسية ، وترجمة مبادىء العلوم ، وانشاء كتاب عن مشاهداته فى باريس ، لعل هذا الفتى الصعيدى أن يصير همزة الوصل المنشودة بين ثقافة الغرب وعقلية الشرق •

وبعد أن أمضى رفاعة فى باريس خمس سنين عامرة بالاطلاع والتفكير والتحصيل بين الأسـاتذة والمستشرقين وأهل العاصـمة الفرنسية وأئمة الحضارة الحديثة ، عاد الى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعاني حياة جديدة ، متحفزا لعمل خطير هو اصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشـعب وتنوير العقول • عـاد ليدرس وينشىء المدارس ، ويصنع من تلاميذه مدرسين للجيل الصـاعد ، وراح

يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ويصـــنع من تلاميذه مترجمين يتولون معه وتحت اشرافـه ومن بعـده نقل ذلك الكنز المفتوح ، ومضى يكتب ويخطب ، وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والاقتصاد والسياسة ، يهدم الآراء الفاسدة ويبث أفكار التقدم ، ويبصر أمته بروعة ماضيها وخصب حاضرها ورجاء مستقبلها ، لا يكل فى ذلك نشاطه على الرغم مما يقيده به محمد على ، ولا تفتر همته حين نفاه عباس الى السودان بل واصل رسالة الارتقاء التى آمن بها ، فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية سنة ١٨٧٣ · انه رائد عملاق ، لولاه ولولا الفريق الذى رباه لظلت مصر متخلفة نصف قــرن آخر · ما أصدق ذلك الكتاب الذى لم يكتب بعد وعنوانه « رفاعة رافع الطهطاوى أو نهضة مصر ! » ·

تتجلى فى خبرة رفاعة تلك الظاهرة الكبرى التى يمتاز بهـا تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، الا وهى الاتصال بالحضارة الغربية · ان رحـلة رفاعة الى باريس هى أول علاقة مثمرة وبين الشرق والغرب فى العصر الحديث · أجل ، لقد تبـــادل الشرق وأوروبا التجارة والسفراء منذ القرون الوسطى ، ولكن اقامة التجار والسفراء الأوروبيين بين ظهرانينا لم تنتج قط امتزاجا انسانيا عميق الأثر · ثم انطوت مصر على نفسها ، حين دهمها الأتراك فى القرن السادس عشر ، فباتت فى ظلامها تجهل أنوار الفجر الجديد الذى طلع اذ ذاك على أوروبا · وامتد سباتنا حتى أيقظتنا فى آخر القرن الثامن عشر طلقات مدافع بونابرت ·

كانت الحملة الفرنسية لقاء عنيفا بين أبنـاء الغرب وأبنـاء الشرق ، ولم يتح لها قصر الأجل ولا روح المقاومة الشـــعبية من الاستقرار ما يؤدى الى اتصال جليل النفع · وللرد على مبالغات

بعض المؤرخين فى تقدير النتائج المباشرة لتلك الحملة على مصر (١) يكفينا أن نذكر الجبرتى ، فان هذا الرجل الذى يعتبر من أكبر علماء عصره ، لم يستطع أن يدرك شيئا من علوم الفرنسيين ، بل انه لم يحاول أن يتفهم ما شهد من تجاربهم الكيميائية والطبيعية البسيطة ، وقنع فى آخر الأمر بابداء دهشته وعجزه ، اذ يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (٢) ٠

وخطت مصر خطواتها التالية فى سبيل الاتصال بالغرب عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد « الافرنج » ٠ شـعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا ومن التاريخ ، وأحس بروعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته ٠ ووضعه « جومار » فى مركز المعارف الجديدة ، فأقبل عليهـا ، وأفاد أكبر فائدة من التوفيق الذى حظى به ، فأصبحت رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا ، وأتحفتنا تجربته بجميع نتائج الاخصاب ، لأنها تمت فى ظروف مواتية ٠

لهذه التجربة الفريدة سجل ثمين ، كتبه بطلها نفسه فى أثناء اجرائها ، وعرف قيمته قبل أن نعرفها اليوم ، فسماه « الديوان النفيس » بعد أن عنونه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ٠ ترى ما مصدر الشغف الذى يجده قارىء هذا الكتاب بعد قرن وربع قرن من نشره ؟ ان أهميته « تخليص الابريز » ترجع الى غزارة مادته ، وتعدد دلالته بالنسبة لنا :

---

(١) كراسات التاريخ المصرى ٠ فبراير ١٩٥٥ :
Anouar Louca : "La Renaissance :
Egyptienne et les limites de l'oeuvre. de Bonapart". Cahiers d'Histoire Egyptienne le Caire, Sèr. VII, Fasc. 1, fèvrier 1955, pp. 1-20.

(٢) راجع عبد الرحمن الجبرتى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ٠ الجزء الثالث ص ٣٥ وما يليها ٠

قد يكون هذا الكتاب أوفى مصــدر مبـاشر لدراسة البعثة التعليمية المصرية التى أرسلت الى باريس عام ١٨٢٦ • على أنه فى الوقت نفسه قصة شائقة تروى رحلة طريفة • وتلك القصة تشبه فى بعض سياقها تقريرا يرفعه الى حكومة مصر طالب عن بعثته راح يستعرض موضوعات دروسه وامتحاناته ، وهى تفاصيل تطلعنا على مراحل تطور عقل الكاتب ونضجه طوال خمس سنين • ولكنه تقرير أشمل من قائمة بنشاط طالب مجتهد ، فالكتاب بجملته تقرير جامع عن باريس باعتبارها عاصمة الحضارة الأوروبية • ومن وراء صورة فرنسا نستشف صورة مصر ، الا تبدو معالمها خلال الموازنات والحسرات والأمانى التى تلح على قلم المؤلف ، وتلك صورة لمصر فى نهضتها كما التقطها فتى من أبنائها الأبرار • والكتاب يعكس لنا أيضا صورة هذا الفتى وهو ينتقل من الشباب الى الرجولة ، فنحن نعيش معه فى هذه الصفحات حقبة من أهم حقب حياته ، نشاطره مطالعاته ومناقشاته ونزهاته ، ونعجب بدأبه واخلاصه ، ونعرف ذوقه الأدبى وقريحته الجادة مع ميله الى الفكاهة ، وتقواه التى توازى بل تفوق ايمانه بالمدنية والارتقاء • ويقدم لنا « تخليص الابريز » فضلا عن ذلك ، ملخصا ممتازا لجميع أعمال رفاعة المقبلة ، كما راوته مشروعاتها فى باريس • فكثيرا ما تبدأ جهود المصلحين بالأحلام والرؤى ، ونستطيع هنا أن نتتبع أحلام المواطن الصعيدى ، والطالب الذكى ، والمترجم والأديب • والكتاب فوق هذا كله — بما يحمل من أفكار جديدة فى أسلوب جديد — تاريخ يؤرخ فى الأدب المصرى الحديث ، فهو يعلن انقضاء عصر الركود العثمانى ، ويبشر بازدهار فنون أدبنا المعاصر •

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الزاخر بالمعانى التاريخية الاجتماعية والشخصية والأدبية ، فقد خيم عليه طويلا النسيان أو الاهمــال ، ولا يكــاد يذكره شـــباب اليوم الا ليتندروا بعنوانه المسجوع ! •

ومن الحق أن يستوقفنا ذلك العنوان قبل أن نشرع فى قراءة الكتاب ، فالجناس المصحف بين كلمتى « تخليص » و « تلخيص » ، ثم بين كلمتى « ابريز » و « باريز » ، يقرع سمعنا بجرس منظوم ، وسجع مرقوم · ويدعونا الى الابتسام من صنعة قديمة قوامها التكلف والافتعال · وهل يقنع المؤلف بهذا العنوان المطرب ؟ انه يصوغ عنوانا ثانيا تشهد فيه ألفاظ أخرى ، متجانسة مسجوعة ، ببراعة الفنان وحذقه · « الديوان النفيس بايوان باريس ! » ولا عجب فقد كانت الصناعة اللفظية واجادة الألعاب الانشائية هى خير صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة ، ولم يكن بد للأديب من اظهار مهارته فى اللعب بالألفاظ حتى يكون أديبا · فكأنى برفاعة يتحدى قارئه بهذا الاتقان ، ويغتصب اقباله على الكتاب اغتصابا ·

على أن كلمة غريبة تبرز فى هذا العنوان المثنى العتيق ، كلمة مجهولة لم تظهر فى اللغة العربية حتى أول القرن التاسع عشر ، هى اسم العاصمة الفرنسية · فلم يذكر « باريس » الا « نقولا الترك » الذى عاصر حملة بونابرت وأرخ لهـا · ويبدو من تردد رفاعة فى كتابة هذا الاسم بين السين والزاى ، أنه يخطه بالحروف العربية للمرة الأولى وسواء كتب « باريس » أو « باريز » ، فهو ينظم الكلمة الجديدة فى سلك عنوانه ، ويحرص على وضعها موضـع القافية من الشعر ، حتى تمتد موسيقاها فى أذن السامع ، وتقع لديه أهم موقع · وانها لظاهرة طريفة ، تروعنا بغزارة معناها · « باريس » التى ترمز الى حضارة العالم الحديث تتجاوب مع ألفاظ عبارة عربية بالية ، على غلاف كتاب كبير الحجم ·· هنا لقاء القديم والجديد ، لقاء الشرق والغرب ·

وحسبنا أن نلقى على الصفحات الأولى نظرة سريعة حتى تتضح لنا عناصر هذا الكتاب الكثيف المادة ، الذى تختلط بمتنه أشعار دخيلة ، ونصوص مترجمة متباينة ·

هو هو ذا الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر ، يقرظ بقلمه الرصين هذا الكتاب عن باريس ، فى أول صفحة منه • انه لسعيد بأن يقدم للجمهور عمل تلميذه • ولا يعدو تقريظه فقرة واحدة من النثر المسجوع المتكلف ، الجميل بحسب مقاييس الكتابة الفنية فى تلك الأيام • ترى هل صدر المؤلف الشاب كتابه الداعى الى أفكار جديدة بثناء شيخ الأزهر ، ليدفع عن نفسه تهم الضلال والمروق والبدعة ؟ لعله أراد من هذه الصفحة فى أول الكتاب أن تحميه من هجمات أعدائه ، كما أراد تحميه بعد ذلك صفحات فى آخر الكتاب أضافها الى الطبعة الثانية وشحنها بقصائد فى مدح عباس باشا بمناسبة جلوسه على عرش مصر •••

ويبدأ رفاعة حديثه « بخطبة الكتاب » ، وهى أربع صفحات من النثر المنمق ، التزم فيها السجع وأكثر من المحسنات البديعية ، وحلاها بأبيات ركيكة من شعر ذلك العصر ، الا أنه أجاد بناءها ، وجمل ألفاظها أفكارا • فهو ينظر فى نفسه من ناحية وفى عمله من ناحية أخرى ، ونستطيع أن نرى فى تلك الصفحات صورة مصغرة للرجل وللكتاب •

انه رجل تربى فى الأزهر ثم انتقل الى باريس ، فاحتفظ بالتقاليد الاسلامية ، وأضاف اليها التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية •

•• يتجلى حظ الأزهر فى طريقة الاستهلال بحمد الله « الذى ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر » وبالصلاة والسلام على رسوله « الذى سافر الى الشام وهاجر الى المدينة » ، وبتمجيد الحاكم فى مصر اذ ذاك • وبعد هذا الاستهلال التقليدى يقدم رفاعة نفسه للقارىء دون ابطاء ، فيذكر اسمه وبلدته ونسبه ومذهبه ، كأنه يبرز أوراقه الشخصية عند باب الدخول ! ويوجز قصة حياته ، فيشير الى افتقار أسرته بعد ثراء ، والى تعلمه فى الأزهر ، وتعيينه « واعظا فى العساكر

الجهادية » ثم « مبعوثا الى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون بهذه المدينة البهية » • ويتجلى حظ باريس فى الانشاء المنطقى الذى صيغت فيه هذه الصفحات من ناحية ، وصيغت فيه من ناحية أخرى أبواب الكتاب ، كما راح يعددها المؤلف فى ختام خطبته • ان هذه الخطبة مقدمة جيدة ، أحسن فيها رفاعة استعراض كتابه ، وساق أفكاره سياقا منظما • فهو يروى ــ على سبيل التمهيد ــ كيف ولد كتابه ، ثم يبين أهدافه ، ويحدد مجال موضوعه ، ويشرح وجهة نظره ، ويعرف بخطته ومنهجه •

ولعل خير سبيل الى الاحاطة بجميع أطراف الكتاب لتقديره حق قدره هى أن نناقش مع المؤلف تلك القضايا التى يثيرها • ولكن لابد لنا قبل أن نبدأ هذا النقاش من أن نلم بمحتويات أبوابه وفصوله •

يتألف « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ــ كما يعلن صاحبه ــ من « مقدمة » تضم أربعة أبواب ، ومن « مقصد » يشمل ست مقالات تنقسم كل منها الى عدة فصول ثم من « خاتمة » •

ويبدأ رفاعة ، فى أول أبواب مقدمته ، بذكر دواعى تلك الرحلة الى فرنسا ، فيصعد الى ما قبل التاريخ ، ويتتبع تطور الانسان وارتقاء المجتمع ، ويرى أن الشعوب من حيث تفاوتها فى درجات الحضارة تنقسم الى ثلاث مراتب : مرتبة المتوحشين ، ومرتبة البرابرة ، ومرتبة « أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن » • وقد كان العرب فى عداد هذه المرتبة الثالثة أيام العباسيين وملوك الأندلس ، غير أن « الافرنج » فى العصور الأخيرة تفرقوا عليهم بفضل ما أتقنوا من علوم ، وما أرسلوا من قواعد العدالة • وحلال طلب العلم فى بلاد الافرنج ، ألم يرد فى الحديث « اطلب العلم ولو بالصين » ؟ •

..وفى البـاب الثانى من المقـدمة يعـدد رفاعة مختلف المـواد التى كان على المبعوثين أن يدرسوها ، وهى أولا مواد عامة لجميع التلاميذ ، كالحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والرسم ، ومواد تخصص ، كالادارة المدنية ، والادارة العسكرية ، والملاحة البحرية ، والدبلوماسية ، والهندسة المائية والميكانيكية والحربية ، والمدفعية ، وصناعة الأسـلحة ، والكيميـاء ، والطب ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، وصناعة الطباعة على الحجر ، والترجمة .

ولكى يحدثنا رفاعة ، فى الفصـل الثالث من المقدمة ، عن أسباب ارسال البعثة الى فرنسا دون سواها من بلاد الافرنج ، ينشىء مقدمة طويلة يستعرض فيها دول العالم كما جمعها الجغرافيون الافرنج فى خمس قارات . ويبدو له « بحسب مزية الاسـلام وتعلقاته ، أن أفضل القارات هى آسيا ، لأنها مهد الاسلام ، ومهبط الأديان السماوية ، ومنشأ الأنبياء والمرسلين والصـحابة والأئمة الأربعة ، ولأنها وطن العرب ، وبها القبلة والأراضى المقدسة . تليها افريقية لأنهـا تضـم مصر « وهى أيضـا عش الأولياء والصلحاء والعلماء » . وأما ثالثة القارات فى الفضل فهى أوروبا ، اذ لا يشرفها الا « وجود الامام الأعظم سلطان الاسلام فيها » وبالمقياس عينه توضع جزر المحيط فى المكان الرابع « لعمارها بالاسلام أيضا مع عدم تبحرهم فى العلوم » ، فهى خير من أمريكا ، حيث لا وجود للاسلام بها أبدا . ولكن رفاعة لا يلبث فى هـذا التصنيف أن يستدرك استدراكا جوهريا ، ويقرر أن جـدارة الأمم وفضلهـا وامتيازها لا تقاس بأديانهـا وانما تقاس بمستواهـا من العلم . « ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية » . وأكثر هؤلاء الافرنج علماهم الانجليز يليهم الفرنسيون فالنمسويون . غير أن « باريز » تمتاز على « لوندرة » باعتدال الجو وقلة الغلاء ، وبما تبيحه للأجانب من حرية الرأى والعبادة

والتصرف : ولذلك استأثرت فرنسا بأغلبية الطلبة المبعوثين من مصر ، ولم يقصد انجلترا والنمسا منهم سوى عدد قليل .

ورابع أبواب المقدمة باب قصير ، يسجل فيه رفاعة أسماء رؤساء البعثة ، وهم ثلاثة « أفندية » كانوا يتناوبون الامرة : « عبدى أفندى المهردار » وكان يتخصص فى الادارة المدنية ، و « مصطفى مختار أفندى الدويدار » وكان يدرس الادارة الحربية ، ثم « الحاج حسن أفندى الاسكندرانى » الذى كان يتعلم الملاحة البحرية ، الى أن انفرد الأول بالرياسة . وكان يشرف على البعثة « مسيو جومار » .

وهنا تنتهى « المقدمة » ويبدأ « المقصد » . ويأخذ رفاعة فى سرد وقائع رحلته وما خالجه من مشاعر فى الطريق الطويل الى فرنسا . منذ وصل الى الاسكندرية — بعد أربعة أيام على النيل — أحس أنه يدنو من بلاد الافرنج . ولما كان قليل الخروج فى أثناء الأيام الثلاثة والعشرين التى قضاها المبعوثون « فى سراية والى مصر » ، فان حديثه عن هذه المدينة لا يعدو ما لخصه عن تاريخ الاسكندر وشخصية « ذى القرنين » من بعض الكتب العربية والفرنسية ، ولاسيما « تقويم البلدان » لأبى الفداء و « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » وكذلك يحدثنا رفاعة من خلال الكتب عن « البحر المالح المتصل بثغر اسكندرية » وعن جزيرتى كريت وصقلية وجبل اتنا وأحوال البراكين . ان كل شىء جديد عليه ، من هذه البارجة الفرنسية التى تدهشه نظافتها الى اجراء الحجر الصحى على ركابها . وفى مياه مسينا ، حيث ترسو السفينة خمسة أيام دون أن يؤذن لها بالنزول يروق رفاعة أن ينظر الى المدينة البيضاء وهى توقد مصابيحها فى المساء ، وأن يشنف سمعه بتوقيع أجراس كنائسها ، دون تزمت ، بل يأخذه الطرب ليلة فيحاول التعبير عن أثر الموسيقى الجميلة فى نفسه ، وينظم وهو يسمر « مع بعض

الظرفاء » من زملائه ، أبياتا رقيقة يتغنى فيهـا بحبيب مجهول يصبو اليه ، وينتشى من سحر عينيه ٠

وتهب على السفينة رياح مضـادة لاتجاههـا ، فتردها الى « نابولى » بعد أن كانت قد جاوزتهـا فى عرض البحر ٠ فاذا استأنفت ملاحتهـا رأى رفاعة جزيرة كورسيكا ــ التى يسميهـا « قرس » قبل أن يترجل على أرض مرسيليا ، وقد استغرقت الرحلة ثلاثة وثلاثين يوما ٠

وأما بقية الرحلة الى باريس فهى مادة « المقالة الثانية » ٠ لم يدخل المبعوثون مباشرة مدينة مرسيليا وانما أنزلوا فى بيت خارجهـا للحجر الصـحى أقاموا فيه ثمانيـة عشر يوما ٠ وهل « الكرنتينة » مما يوجبه الشرع أو مما يحرمه ؟ لعلها « من جملة الفرار من القضاء » كما يقول بعض الفقهاء ٠ على أن رفاعة ــ فى اعتدال وحذر ــ يورد محاورة أنصار « الكرنتينة » وخصومها ، دون أن يفصـل فى المشكلة برأى شخصى ٠ ويبدأ المبعوثون فى الكشف عن العادات الفرنسية ، فيدهشهم ما يرون من بسـائط الحياة اليومية ، يدهشهم الجلوس على الكراسى والنوم على أسرة مرتفعة عن الأرض ، وطريقة اعداد المائدة ، ونظام تتابع الأطعمة ، واصطناع الشوكة والسكين فى تناولها ، وانفراد كل آكل بأدواته تلك ، وكوبه لا يشاركه فى استخدامها جاره القريب أو البعيد ٠٠٠ ومكث المبعوثون فى مرسيليا خمسين يوما أخرى فى انتظار نقلهم الى باريس ٠ أقاموا فى بيت كبير باحدى ضواحيها ، وشرعوا فى تعلم مبادىء قراءة اللغة الفرنسية ٠ وكانوا يخرجون للنزهة فى وسط المدينة ٠ ويعجب رفاعة باتساع الشوارع ، وبضخامة الأبنية ، وبأناقة « العربات المزينة المحملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع » ، ويشتد عجبه اذ يشاهد النساء سافرات يعملن فى المتاجر كالرجال ! انها امرأة تلك التى تدير ذلك المقهى الفاخر الذى دخله مع أصـحابه ، فرأى القوم يطالعون الصحف

ـ لأول مرة ـ وخيل اليه طويلا وهو بين المرايا المثبتة على الجانبين المتوازيين أنه فى طريق عام مزدحم بالحركة والناس ! ويلتقى رفاعة فى جولاته ببعض المهاجرين المصريين الذين استقروا فى مرسيليا ، ويسمع ما يرونه له من أخبار المصرية التى تزوجها القائد الفرنسى « عبد الله مينو » و « عبد العال » الذى تزوج فرنسية ٠

والفصل الثانى من هذه المقالة فصل قصير جدا « فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس » ، ينوه فيه رفاعة بالعربات الكبيرة التى يستقلها المسافرون أياما متواصلة ، ولا يشعرون فيها بدوار البحر ، والتى تحط بهم فى آخر كل مرحلة أمام فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » وفى فندق بمدينة « ليون » يستريح الركب اثنتى عشر ساعة ، ولا يتاح لرحالتنا أن يرى من تلك المدينة الا ما تطل عليه نافذته ٠ وفى ختام الاسبوع تصل العربة الى باريس ٠ ولا يفوت رفاعة أن يصف جمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، تظلله « الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد » ، كما لا يفوته أن يصف جمال نساء الريف ، وما يمتزن به على الباريسيات من صفاء البدن والحسن الطبيعى ٠

والمقالة الثالثة ـ « فى دخول باريس وذكر جميع ما شهدناه وبلغنا خبره من أحوال هذه المدينة » ـ هى أطول مقالات الكتاب ، وتنقسم الى ثلاثة عشر فصلا ٠

يعالج الفصل الأول « تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج اقليمها وقطرها » ٠ وينظر رفاعة قبل كل شىء فى لفظة « باريس » فيشرح أصلها ، وكيف ينبغى أن تنطق باللغة العربية ٠ ويستطرد بعد ذلك ، لتحديد موقع باريس ، الى درس عن خطوط الطول وخطوط العرض ، استقاه بلا شك من كتاب فى مبادىء الجغرافية الفلكية ٠ وهو يحس بأنه يستدرج القارىء خارج الموضوع ، فيعتذر بأن فى استطراده هذا

معلومات جـديدة مفيدة . ويشبه رفاعة تقلب الجو فى باريس بتقلب طباع أهلهـا . فما أكثر ما تفجأك العاصفة فتنغص عليك نزهتك ، وقد حدد المناخ المطير هناك شكل المبانى المنحدرة السقوف ، وشكل الشوارع « المبلطة بالحجر » المزودة بمجار تحمل الماء الى البالوعات . ويصف رفاعة أنواع المدافىء التى يوقدها الفرنسيون لاتقاء برد الشتاء . ويعجبه خصب الأرض التى تهب البيوت بساتين وافرة الثمر ، متنوعة الشجر ، فقد يغرس الفرنسيون بها أشجارا من غير نبات منطقتهم كالنخل ، رغم قول القزوينى عن النخل فى كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » انه « شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنهـا لا تنبت الا فى بلاد الاسلام » ! ... ويفضل رفاعة ماء النيل على ماء « السين » ، والنزهة فى الروضة والمقياس على النزهة فى جزيرة « السيته » . وهو يتغنى بحنينه الى مصر فى قصيدة متكلفة ركيكة ، استهلها بالنسيب وحاكى فيها شعر المديح التقليدى ، وحيا رجال الأزهر والوالى . وقد لا تظهر روعة وطنيته فى هذه القصيدة المباشرة ، بقدر ما تظهر فى حرصه على اقتباس كل ما يراه نافعا لبلاده ، مثل تلك العربة التى تجرها الجياد بينما تنفتح ثقوب دنها الملىء بالماء لرش الشوارع والميادين . وبعد أن يحصى رفاعة قناطر نهر « السين » ، والطبقات الجولوجية التى تتكون منها أرض باريس ، يذكر عدد « الفسحات » أى الميادين التى تشبه « فسحة الرملية بالقاهرة ـ فى مجرد الاتساع لا فى الوسـاخة » ، وعدد أبواب المدينة الخارجية ، وعـدد قنواتهـا وصهاريجها ، وعدد سكانها ـ وهم يبلغون « فوق مليون من الأنفس » ويتزايدون باطراد ، وتتسـع دائرة عمرانهم « لاعانة ملوكهم على ذلك » .

والفصل الثانى فصل شائق « فى الكلام على أهلِ باريس » ـ لقد عرف رفاعة شدة ذكائهم ، وتأصل الثقافة فيهم ، وتوقهم الى الفهم والإستطلاع ، والوقوف على كل طريف ، وولعهم بالصيت

ودوام الذكر أكثر من تهافتهم على الكسب · وعرف نشاطهم الجم ، وخفة حركاتهم ، وتقلب مزاجهم وعواطفهم ، وان كانت آراؤهم فى جد الأمور رصينة ثابتة · انهم قوم يحبون وطنهم ، ويكثرون مع ذلك من الرحــلات ويحتفون بالأجانب ، وهم يحرصــون الى حــد التقتير ، الا أنهم يبذرون المال فى طلب اللهو · ويتفننون فى اللهو ، ولكنهم يعملون فيتقنون عملهم · وقد يدفعهم الاعتزاز بالنفس الى هاوية الانتحار دون أن يذعنوا للقدر ، ولو أنهم أوفياء للعهد ، يحفظون الجميل ويؤدون الواجب · ومن الغريب أن الرجال عندهم عبيد النســاء ، يثقون بهن ، ويدللونهن ، ثم يلجأون فى خيانة العرض الى ساحة القضاء بدلا من أن يثأروا ثأرا شخصيا · ويعجب رفاعة بعدم وجود الغزل بالمذكر فى أشعارهم · غير أنه يأخذ على النساء قلة العفاف ، وعلى الرجال قلة الغيرة ، وان كان يرى أن اضطراب الأخلاق نتيجة اجتماعية طبعية لبيئة المدن الكبيرة بوجه عام · وأما عن عقــائدهم ، فهى تقدمية تطورية ، يؤمنون بالعقل ويرفضون ما لا يقبله العقل من الخوارق ، ويقولون ان الحضارة فى المجتمع الراقى تؤدى دور الدين فى المجتمع البدائى · ويستنكر رفاعة انكار بعضهم القضاء والقدر · ثم يصف مظهرهم ، من بياض البشرة ــ لعدم اختلاطهم بالزنوج ــ الى رقة نسائهم اللطيفات ، اللواتى يشاطرن الرجال متعة النزهة والرقص ·

ولما كانت لغة الباريسيين هى الفرنسية ، فقــد ختم رفاعة هذا الفصل بحديث عن مزايا هذه اللغة ، مقارنا لها باللغة العربية ، وعن فضل بعض من تعرف بهم من المستشرقين · فاللغة الفرنسية واسعة المجال غنية بالمعانى « لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية » ، وترجع هذه الثروة اللغوية الى كثرة ما استعاره الفرنسيون من اللغــات الأخرى لاكمال مصطلحاتهم ولا سيما فى العلــوم · وأما جمال الأسلوب لديهم فلا يقوم على الجناس والتورية « فهى من هزليات

أدبائهم » ، « وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس » ويبدو لرفاعة أن « اصطلاح اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن وتصريف الفعل مع فعل آخر » ٠ ولكن لكل لغة كيانها ، نحوها وخطها وبيانها « فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك » ٠ ويستطرد رفاعة الى ذكر « علوم العربية » الاثنى عشر ، فينقد تصنيفها ، وينفى نسبتها الى اللغة العربية وحدها ٠ ويشهد هذا النقد وتشهد تلك المقارنات باتساع أفق الطالب الأزهرى القديم ٠ لقد اكتسب معنى النسبية ، وأيقن أن « العلم هو الملكة » لا مجموعة المتون المحدودة التى يستظهرها الحافظ ويعيدها ٠ ولا أدل على ذلك من أن العالم بلغة من اللغات ، كاللاتينية مثلا « له ادراك فى النحو فى حد ذاته ٠٠٠ فمن الجهل أن يقال انه لا يعرف شيئا بدليل جهله باللغة العربية » ٠ الم يجالس ويناقش المستشرق الفحل « سيلفستر دى ساسى » Silvestre de Sacy ؟ الم يقرأ شرحه لمقامات الحريرى ، وكتبه التى ألفها فى النحو « على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا » ؟ ان رفاعة يشبه هذا العلامة بالفيلسوف الفارابى ، ويستنكر « ما يتراءى من أن الأعاجم لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له » ٠

ويستطرد الى سرد ترجمة لحياة الفارابى فيروى بعض نوادره وأبيات من شعره ، مما ينسينا أننا مازلنا نقرأ فصلا عن « أهل باريس » ثم يشيد رفاعة بتغلغل العلم فى جميع شعاب الحياة الفرنسية ، حتى لدى الطباخين والسوقة ! وللنساء فى التاليف والترجمة نصيب ملحوظ ، وفضل ثابت ، وهذا شىء جديد يسجله الصعيدى الرحالة ، ويدفعه الى تغيير رأيه فى المرأة ٠ لقد قرأ رسائل « مدام دى سفينيه » ، وأيقن أن للمرأة مكانا فى الحياة الفكرية ينبغى أن تشغله ٠ وأما الآداب الفرنسية « فلا بأس بها » ، ولكن رفاعة لا يقر جرى الشعراء على « عادة جاهلية اليونان وتاليههم

ما يستحسنونه » ، اذ يقولون مثلا اله العشق ! واله الجمال ! « فألفاظهم في بعض الأحيان كفرية صريحة ، وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون » . ويحاول رفاعة أن يتحفنا بشيء من الشعر الفرنسي ، ترجمه هو الى شعر عربى ، فاذا بترجمته عسيرة متكلفة ، الا أنها أفادته تمرينا وممارسة وصقلا ، وعلمته أن » هذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتهـا فلا تظهر علو نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصـائد العربية ، فانه لا يمكن ترجمتها الى غالب اللغات الأفرنجية من غير أن يذهب حسنها بل ربما صارت باردة » ولا شك أن ذلك كان نواة لشعور امام المترجمين المحدثين بصعوبات الترجمة ، ولاسيما ترجمة النصوص الأدبية الممتازة .

وفى الفصـل الثالث ، يحدث رفاعة مواطنيه عن الحـكومة الفرنسية ، « ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » . انه معجب بالنظـام الديمقراطى حيث يدافـع عن الملك « ديوان البير » أى (مجلس الأعيان) ويدافع عن الشعب (مجلس النواب) أو « ديوان وسل العمالات » كما يسميه ، ويرى فى هذا التوزيع ذكاء واصابة وكفالة للعدالة « بنكتة لطيفة » ! .

وبعد أن يستعرض أجهزة الحكومة المختلفة ، يثنى على الدستور الفرنسى « وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سـنة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم » ، ويحرص على ترجمـة مواده « لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو أبدا ، والعدل أساس العمران » . ولا يكتفى رفاعة بالترجمة ، بل يعلق على المواد الرئسية . انه يشيد أولا بالمساواة بين « سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع

ووضيع ... حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره » . ويشيد بالعدل فى تحديد الضرائب والنزاهة فى تحصيلها « بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطى وتنفع بيت مالهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة » . كما يشيد بتشجيع الكفايات اذ أن لكل امرأى هناك الحق فى أن يتولى أى منصب تؤهله له جدارته ، وأن يصل الى أية رتبة يرفعه اليها عمله . ثم يشيد بمبدأ حرية الرأى والنشر الذى لولاه لما استطاعت الصحافة أن تؤدى رسالتها الجليلة . ويضيف رفاعة الى هذا الفصل الخطير ترجمة ما أدخل على الدستور من تعديلات بعد ثورة الشعب سنة ١٨٣١ .

ويتناول الفصل الرابع « عادة سكنى أهل باريس » . وفيه يحدثنا رفاعة عن المواد التى يستخدمهـا الفرنسيون فى البناء ، وكيف يكسون جدران الغرف بورق منقوش ، وأرضهـا بخشب مصقول . ويصف ما يشمله البيت من مختلف الأثاث . وبعد أن يحصى ما فى غرفة الاستقبال من آنيـة الأزهـار وآلة البيانو ، والسجاجيد النفيسة ، « النجفات العظيمة » ، يشير بوجه خاص الى وجود الصحف والكتب المستجدة ليطلع عليها من أراد من الضيوف ، وينتهى بالثناء على « سيدة البيت » التى « يكمل الأنس بحضورها » . ويصنف الدور ، حسب أحجامها ومستواها من الترف ، الى ثلاث مراتب ، ويشرح وظيفة البواب ، ويذكر أثمان العقارات وغـلاء ايجار المساكن . ثم يصحبنا الى زيارة « حريم ملك فرنسا » ، حيث يقدر الأشياء بدرجة ما يتجلى فى صناعتها من فن لا بقيمة مادتها الأولية ، مما يدلنا على تطور شخصيته وارتقاء ذوقه . والأغنياء باريس يقيمون فيها أثناء الشتاء ، أما فى الصيف فيهجرون حرها ، وينزحون الى بيوتهم الريفية . والجمع مولعون بالرحلات ، حتى النساء « خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطل » . ويختم رفاعة هذا الفصل بمدح نظافة الفرنسيين ووسائلهم اليها .

والفصل الخامس « فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم المآكل والمشارب » • فخبزهم من الحنطة ، يطحنونها فى طواحين الهواء والماء،ويخبزها الفران فيبتاعونها من دكانه،لأن الفرنسيين يشغلون أيامهم بما هو أهم من صناعة الخبز فى بيوتهم كما اعتاد الناس فى مصر•والأطعمة متنوعة،ولو عند الفقراء • ويهتم الشيخ الامام بطريقة ذبح ما يؤكل لحمه • وله هنا وصف شائق لطريقة ذبحهم للماشية ، وهو وصف لم يخل من فكاهة • على أن هناك المطاعم « الرسطوراطورات » ـ وهى أماكن فاخرة ، أكثر استعدادا من البيوت لتقديم المأكل والمشرب ، وتوفر راحة الباريسيين • ويعود رفاعة الى وصف المائدة وآدابها وترتيب قائمة الطعام ، مندهشا من اقلال الفرنسيين من شرب الخمر ، ومن التغنى بها كشعراء العرب المتفننين فى الخمريات ! تلى ذلك أرقام واحصاءات عن المواد الغذائية التى يستهلكها سكان باريس • وتثير صناعة المأكولات المحفوظة اعجاب رفاعة ، الا أنه ـ رغم شهرة الفطائر الفرنسية ـ لا يكاد يحب أطعمة الفرنسيين •.ويروى فى ختام الفصل ما وقع ذات ليلة مع سكير خارج من احدى « الخمارات » •

وفى الفصل السادس عن « ملابس الفرنسيس » يثنى رفاعة على « لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الاسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش » • ويشير رفاعة الى هندام الرجال ، ولكنه يطنب فى وصف ملابس النساء التى يراها « لطيفة بها نوع من الخلاعة » • ويستعرض علامات الحداد السوداء ، ومتى والى أى مدى يحملها أصحابها فى كل مناسبة ، وعادة التحلى بالشعور المستعارة •

والفصل السابع تقرير ثمين عن الملاهى فى باريس ، يعرف رفاعة قارئه أولا بالمسرح ، وبرسالته الثقافية والأخلاقية • ورغم فقر اللغة العربية يومئذ فى الألفاظ والمصطلحات الفنية اللازمة

لتسمية ما يضمه المسرح ، لا يحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » ويشبه اللاعبين واللاعبات « بالعوالم » • ان هذه الصفحة الساذجة لوثيقة هامة يؤرخ بها دخول المسرح الحديث الى الأدب العربى المعاصر •

ويعدد رفاعة أنواع « التياتر » و « السيكتاكل » الباريسية ، من الأوبرا الى السرك • يتحدث عن لون آخر من اللهو وهو « البال » أى حفلة الرقص • ولا يفوته أن ينبه قارئه الى جمال هذه الرقصات التى يشترك فيها الرجال والسيدات وهم جميعا فى أفخر حللهم وزينتهم ، وكأنهم يؤدون حركات رياضية مهذبة راقية ، على حين بات الرقص فى مصر «من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات» •

ويختم رفاعة هــذا الفصــل بجولة فى حدائق باريس ، من « الشانزليزيه » الى الشوارع الكبرى « البولفــار » حيث يتنزه العشاق ليلا ، ويأخذه الطرب ، فيخرج من أعماق ذاكرته أبياتا من الشعر القديم عن الليل والغرام •

ويتدرج المؤلف من هذا الفصل الى الفصل التالى بعبارة بارعة : « وبالجملة فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المتنزهات الا بصحة البدن » • ذلك أنه يريد أن يشرح لنا الآن « سياسة الأبدان بمدينة باريس » • غير أنه لا يكاد يذكر تحت هذا العنوان الا الحمامات ، مقارنا لها بحمامات مصر ، ومدارس الرياضة البدنية • وأما الحديث عن الطب ، وما بلغته فيه باريس من تقدم ، فهو موضوع الفصل التاسع الطويل •

ويضيف رفاعة الى هذا الفصل « نبذة » فى الطرق الطبيعية للعناية بالصحة ، يوجهها الى صحاح البدن والى المرضى والى الناقهين ويعنونها « نصيحة الطبيب » ، وهى ترجمة لكتيب شعبى من نشرات بعض الهيئات الطبية الفرنسية •

ونعود فى الفصل العاشر أيضا — « فى فعل الخير بمدينة باريس » — الى ذكر مختلف المستشفيات • ثم يتحدث رفاعة عن الجمعيات الخيرية ، وعن ملاجىء اللقطاء والأيتام ، والعمى • والشيوخ ، وجرحى الحرب ، وعن « دواوين الاحسان » أى المكاتب التى تتولى اعانة المحتاجين واغاثة المنكوبين ، وعن مراكز اسعاف المصابين وفى هذه المنظمات ما يعوض المجتمع عن بخل الفرنسيين أفرادا ، فان الجودشيمة العرب •

والفصل الحادى عشر « فى كسب مدينة باريس ومهارتها » • ان حب العمل والسعى الى الكسب ، متأصلان فى نفوس هؤلاء الناس « حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » • ويستعرض رفاعة تجاراتهم ، وأولها « معاملات الصيارفة » أى البنوك — « صيارفة الدولة أو الميرى ، وصيارفة باريس » • ثم يعرف بشركات التأمين ، وهو يسميها « جمعية الشركاء فى الضمانة » •

ويعدد أنواع المصانع ، وفوائد المعارض والمواد التى يدرسها الطلبة فى معاهد التجارة • ومما يساعد على رواج التجارة ، تيسير وسائل المواصلات ، وانتظام البريد ، ودعاية الصحف للسلع أو توزيع الاعلانات عنها • ولقد فطن الفرنسيون الى أن الاقتصاد من أهم قواعد الثروة الفردية والوطنية ، واشتد اهتمامهم بالتوفير ، و « تدبير المصاريف » حتى جعلوا من الاقتصاد علما ذا مقدمات ونتائج •

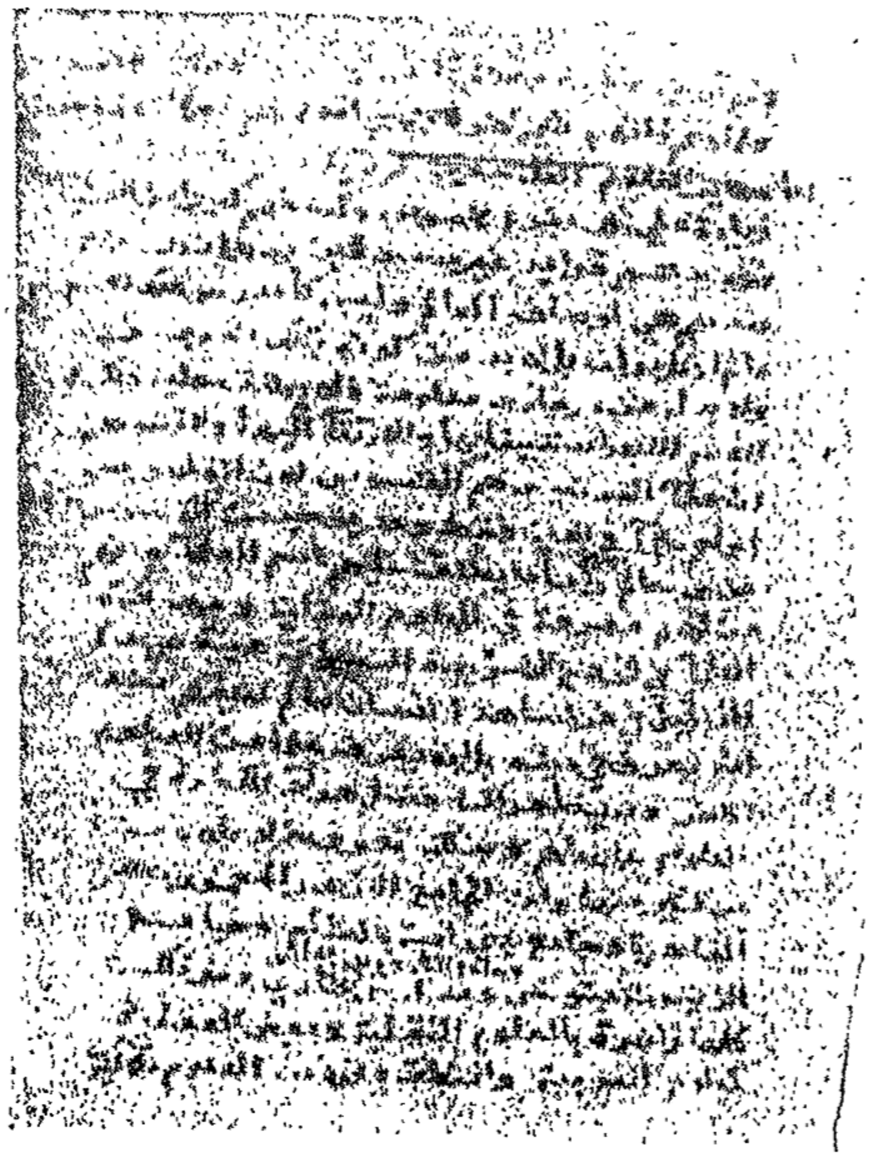
والفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » • والفرنسيون ، فيما عدا قليل من اليهود والبروتستانت ، يدينون « بالنصرانية القاثوليقية » ، وفى أكثر الأحيان « ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم داخلون فى اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه » بل ومن الفرنسيين من ينكر العقائد ، ولا يؤمن الا بما

يقبله العقل ، ويقاطع رجال الكنيسة ويرميهم بالجهل · ومن أحاديث هؤلاء المنصرفين عن الروحانيات استقى رفاعة ما يقال عادة فى ذم القسيسين ممن لا يؤذن لهم بالزواج « فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم » ، وممن يقومون فى بعض الأعياد بمواكب دينية غريبة « من باب الهوس » · ويشرح رفاعة لقارئه « درجة القسيسية » من الكردينال الى الشماس · وقد عرض رفاعة مخطوط كتابه على المستشرق سيلفستر دى ساسى ، فعلق على هذا الجزء مصححا تعميمه بنظرات أدق ، مكملا اللوحة بما غاب عن بصر الشيخ الامام من التفاصيل ، ونشر رفاعة تعليق دى ساسى فى الفصل نفسه ·

والفصل الثالث عشر فصل طويل عن « تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع » يحرص فيه المبعوث على نقل صورة وافية عن الحياة الفكرية فى العاصمة الفرنسية · انه معجب اعجابا لا حد له بالعلوم التجريبية ونتائجها المحققة بفضل الأجهزة والمعامل المتخصصة ، ولكنه يحذر قارئه المؤمن من « الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة » لأن لهم « فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها » · على أن اللغة الفرنسية بوضوحها ودقتها ، وتوفيرها على الأسلوب عناء التطبيقات البلاغية التى تعوق تيار الفكرى لدى المعبر باللغة العربية ، قد أصبحت أداة مثالية للبحوث العلمية · وما أصدق هذه الشكوى بقلم خريج الأزهر القديم ! وبفضل بساطة اللغة ، تجد الفرنسيين أصحاب ثقافة يدهشك اتساعها ، وتجد « الصغير الذى خرج من سن الطفولية » ذا استعداد تام لتلقى المعرفة وتحصيلها · ويقارن رفاعة بين علماء باريس ، الذين يتوجون دراساتهم العامة الطويلة بالتخصص فى فرع واحد يبتكرون فيه بحثا جديدا ، وبين علماء الأزهر الذين يحصرون العلم فى دائرة المواد الشرعية · ويبين كيف

أدى هذا التضييق الى املاق المدارس العربيـة من العـلم بمعناه الحديث • ثم يستعرض دور الثقافة والتعليم من المكتبات العامة والخاصة ، الى متاحف النبات والحيوان والجيولوجيا ، ومن المرصد الى « الأكاديميات » المختلفة ، والكليات والمدارس و « البنسيونات » • ويشتد اعجاب رفاعة بنشاط تجارة الكتب ، وبكثرة المنشـورات والدوريات ، ويعود الى ذكر فـوائد الصحف ، فانه يسـتكشف الصحافة استكشافا •

وفى المقالة الرابعة يعرف رفاعة قارئه بالثقافة التى حصلها فى باريس وبمراحل دراسته وامتحاناته ونظام البعثة • ففى الفصل الأول من هذه المقالة يذكر ذلك الكتاب الصغير المبسط المصور الذى تعلم فيه مبادىء قراءة اللغة الفرنسية بتقطيع الألفاظ ، ويثنى على منهجه التربوى • ثم يسجل البرنامج الذى اتبعه المبعوثون مدة عام تقريبا « فى بيت الأفندية » قبل أن يتفرقوا فى عدة « بنسيونات » يخالطون فيها ، وعنوانه الفرنسيين ليتقدموا فى اللغة ويفيدوا من الدروس • وفى الفصل الثانى ، وعنوانه « تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ، يسرد رفاعة مواد اللائحة التى وضعها المشرفون على البعثة • وفى الفصل الثالث ، يورد مثلا من الخطابات التى كان يرسلها محمد على الى هؤلاء الطلبة فى باريس ، مترجما من اللغة التركية « فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند الثمانية احياء القلوب ، ومنها ما كان من باب التوبيخ » كما يورد ترجمة لرسالة اليه من جومار مرير البعثة يعترف فيها باجتهاده وثمرة تحصيله • ويواصل رفاعة نشر الرسائل ، فيوافينا فى الفصل الرابع بما كتبه اليه المستشرقان « سيلفستر دى ساسى » وكوسان دى برسفال Caussin de Perceval من « تخليص الابريز » ، كما يضيف ترجمة لخطاب آخر • يسأله فيه المستشرق « جوزيف رينـــو » (Joseph Reinaud) عن الكتب التى ترجمهـــا من الفرنسية ، ولا ينسى أن يطلعنا كذلك على رسالة ودية من صديقه



صفحة من الفصل الثالث عشر فى المقالة الثالثة ـ عن « علماء الفرنسيس » ـ كما وردت فى مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ٠

« جول سلادان » • وفى الفصل الخامس ، يستعرض رفاعة الكتب التى درسها فى النحو والتاريخ والرياضـــة والجغرافية والمنطق والأدب الفرنسى • ولما كانت الصحف من أحب مطالعاته فى باريس ، فانه يتحفنا بترجمة مقالة عن الحرب بين الأتراك والروس • وأخيرا يصل ، فى فصل سادس ، الى ذكر الامتحانات التى أداها والجوائز التى نالها • ويترجم لنا ما نشره جومار عن امتحانه النهائى فى المجلة الموسوعية (La Revue Encyclopédique) ، وهذا النص بالاضافة الى شهادة استاذه « شيفالييه » Chevalier » خير تقرير عن بعثته •

ولقد شهد رفاعة فى باريس ، قبيل عودته الى مصر ، ثورة الشعب الفرنسى على حكومة الملك شارل العاشر فى يوليو سنة ١٨٣٠ ، فأفرد المقـالة الخامسـة من كتابه لرواية هـذا الحديث التاريخى • والفصل الأول من هذه المقالة تمهيد يحاول فيه رفاعة المؤرخ أن يستنبط « علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » ، متتبعا اتجاهات الأحزاب المختلفة منذ الثورة الكبرى سنة ١٧٩٠ (كذا) • والفصل الثانى عرض لأوامر الملك التى أطاحت بحرية النشر وأقامت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وما تلا ذلك من احتجاب الصحف ، واضراب العمال ، وغضب الشعب على الحكومة ، ونشوب حرب أهلية • وفى الفصل الثالث يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ويقص كيف أفضى به عناده الى التنازل عن العرش وخلع المملكة على ابنه ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد رأى مجلس النواب أن يخلفه « الدوق دورليان » • ويتتبع فى الفصل الرابع الخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية هذا الدوق ملكا للفرنسيين ــ لا ملكا لفرنسا ــ باسم « لويس فيليب » • ثم يروى فى الفصل الخامس كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم ، ويذكرنا اعجاب رفاعة بنظام القضاء الفرنسى بما سبق من اعجاب الجبرتى به فى حديثه عن قضية اغتيال القـائد

« كليبر » في القاهرة · ويصور لنا الفصل السادس دهشة رفاعة وهو يستطلع في شغف سخرية الفرنسيين من ملكهم المخلوع ، برسوم تظهر في الصحف أو تلصق على الجدران ، وبنشر فضائحه في أوراق مطبوعة ، وهذا فى نظره أكبر دليل على حرية الرأى هناك · ويحاول فى الفصل السابع أن يحيط بنتائج هذه الثورة من الناحية الدولية ، فقد أخذ كثير من الأمم الصغيرة يطالب باستقلاله اسوة بالشعب الفرنسى ، وتحفز ملوك أوربا للنيل من فرنسا · لقد كتب رفاعة ـ فى وضوح وذكاء ـ ذلك التاريخ الذى عاصره فى باريس ، ورجع اليه فى مقالات الصحف ·

والمقالة السادسة والأخيرة من « تخليص الابريز » كتيب تعليمى يقدم لمحات من المواد التى سافر الطلبة ليحصلوها فى باريس · يبدأ رفاعة ـ فى الفصل الأول ـ بشرح تصنيف الأوروبيين للعلوم ، مقارنا مذهبهم فى ذلك بمذهب العرب · ويتوقف ـ فى الفصل الثانى ـ عند علم اللغة ليقارن بين قواعد الفرنسية وقواعد العربية · لقد حاول عبثا أن يجد فى النثر الفرنسى الزخارف البديعية التى اعتادها · ثم ينظر فى الشعر ، فيردد ما سبق أن نبه اليه زملاءه الأزهريين : « نظم الشعر غير خاص بلغة العرب » · وينتهز هذه الفرصة فيملأ خمس صفحات بمختارات من « أحسن القصائد والمقطعات » تدلنا على ذوقه الأدبى وذوق معاصريه · والفصل الثالث ـ « فى فن الكتابة » ـ يؤكد لنا اتجاه رفاعة الجديد الى الدراسات المقارنة ، فهو يستعرض الحروف الهجائية فى عدة لغات ويوازن بينها · ويعود ـ فى الفصل الرابع ـ الى « علم البلاغة » ، فيعرف بموضوعه ، ويكرر أن « هذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات » ، كما يكرر أن القيم الجمالية للتعبير تختلف من بيئة الى أخرى · ثم ينتقل ـ فى الفصل الخامس ـ الى « المنطق » ، فيعدد مباحثه ومبادئه ، ويترجم فى الفصل التالى « المقولات العشر المنسوبة

الى أرسطو » عن كتاب المنطق الشهير ، الذى درسه فى باريس "La Logique de Port-Royal" • وبعد أن يتحدث ــ فى الفصل السابع ــ عن « علم الحساب المسمى باللغة الأفرنجية الأريتماطيقى يقدم « نبذة » من الجغرافيا تحدد أقسامها الكبرى : جغرافيا طبيعية ، جغرافيا رياضية ، جغرافيا سياسية ، الخ • ولما كان التاريخ علما جديرا بالاهتمام فقد رأى رفاعة أن يترجم للقارىء ، عن العبر التى نستمدها من دراسة ماضى الانسانية ، صفحتين بليغتين من نثر أستاذه « جوزيف أجوب Joseph Agoub ويصرح رفاعة فى آخر مقالته بانه تعهد بنقل هذين العلمين من الكتب الحديثة خدمة لمواطنيه •

هكذا قدم رفاعة لنا رحلته ، وثمرتها ، ولم يبق عليه الآن الا أن يكتب « الخاتمة » • وانه ليستهلها بمدح « ولى النعم » ورؤساء البعثة الذين عادوا ليشغلوا مناصب عليا ، مدحا أجوف ، فى جمل متكلفة مسجوعة • ثم وصف رفاعة طريق عودته من باريس • وقد وقفت به العربة فى « فونتنبلو » حيث أوحى اليه القصر التاريخى الذى زاره بعد أن تنكر الزمان لمن سكنوه ، أن يذم الدهر وأن يستطرد الى رواية أبيات من الشعر المأثور فى هذا المعنى • ويشبه رفاعة النصب الذى أرادت أسرة « البربون » أن تسجل عليه أسماء ملوكها ، بالآثار المصرية القديمة • ويورد آراء العلماء المحدثين فى الأهرام حتى يقابلها القارىء بما ذكره فيها المؤرخون العرب « من الأوهام » وهنا نلمس الوعى الجديد الذى يدفع هذا الصعيدى الناهض الى المطالبة بحماية آثار أصبح يقدر قيمتها الوطنية والجمالية • ثم يستأنف رفاعة استعراض المدن التى مر بها : « نيمور » Nemours ومـلان Melun ، حيث مماليك نابليون من مهاجرى مصر وسورية و « روانة » Roannes التى يميزها بهذه التسمية من « روان » Rouen الواقعة فى شمالى فرنسا ، و « ليون » Lyon ، و « أورجون » Orgon • وفى ميناء

مرسيليا ، ركب رفاعة سفينة تجارية أوصلته الى الاسكندرية . وهو لا يصف الطريق فى البحر « لأنه عين ما سبق فى المقصد » .

على أنه لا يضع القلم قبل أن يصارحنا بخلاصة رأيه فى الفرنسيين « لا شك فى أنهم أقرب الى العرب منهم الى الترك ، فهم يحرصون على الشرق والحرية ، ويحبون الافتخار ، ويفون بعهودهم » . ولكى يشبع استطلاع قرائه الذين يكثرون السؤال عن حال النساء عند الافرنج ، يعلن أن العفة ليست نتيجة الحجاب ، بل نتيجة « التربية الجيدة » و « التعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة » و « الالتئام بين الزوجين » . وقد لاحظ فى فرنسا « أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى دون نساء الأعيان والرعاع » . ويعجب رفاعة « بمروءة » الفرنسيين ، وتلك من صفات العرب الأصيلة وان يكون أضعفها فى الأزمنة الأخيرة « مشاق الظلم ونكبات الدهر » . وأما الحرية التى يعتز بها الفرنسيون ، فقد كانت أيضا من أهم ما يعتز به العرب ، ورفاعة يستشهد على ذلك بأمثلة من تاريخ العرب وأشعارهم .

ولا ينسى الطالب الوفى أن يشكر « مسيو جومار » لتفانيه فى خدمة المبعوثين ، ويترجم شطرا من مقدمة التقويم الذى وضعه جومار « لاستعمال مصر والشام سنة ١٢٤٤ هـ » ، ففيه يتحدث عن وجوب الاصلاح فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم . وفى الختام ، قبل أن يرفع الكاتب الدعاء التقليدى بالتوفيق للحكومة ، نحس أنه يدافع عن نفسه « من قال الناس وقيلهم » فى حزم وتواضع معا .

لكل كتاب قصة . وقصة تأليف « تخليص الابريز » يروى لنا رفاعة طرفا منها فى خطبته ، إذ يقول :

« فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ـ لاسيما شيخنا العطار ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ـ أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا ... » .

أما « الشيخ حسن العطار » فنحن نعرف ما سبق له من الاتصال بالفرنسيين فى مصر ، والتنقل فى الشام وتركيا ، لقد كان يحب الرحلات ويحب الكتب ويغدق النصح لتلميذه الأثير . وأما « الأقارب » فلابد أنهم أخوال رفاعة الذين شجعوه قبل ذلك على السفر فى طلب العلم من طهطا الى القاهرة ، وأما « المحبون » فهم بلا شك أصدقاؤه من شباب الأزهر الذين أخذوا يتطلعون الى بشائر النهضة ، وحسبنا أن نسمى من بينهم « عياد الطنطاوى » الذى رحل فيما بعد الى بطرسبرج ، وكتب سنة ١٨٥٠ « تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا » .

هؤلاء جميعا كانوا خليقين بدعوة رفاعة الى تأليف كتاب عن رحلته . ولو لم يفعلوا ، لكتب رفاعة من تلقاء نفسه « تخليص الابريز » . فهذا الفتى الأديب الذى يسعد بانشاء النثر وقرض الشعر ، هذا المصرى الذى لم يكد يغادر الأزهر حتى وجد نفسه فى قلب باريس ، هل كان يستطيع أن يصمت أمام مشاهد الحضارة الرائعة التى انكشفت له أسرارها ؟ لقد أقام خمس سنين تهتز مشاعره بما يرى وبما يسمع وبما يقرأ . فهى اذن باريس التى أوحت بهذا الكتاب ، على حين لا يظهر حسن العطار ولا تظهر توصيته توصيته الا فى الصفحات الأولى ، وهى فى أكبر الظن مكتوبة بعد عودة رفاعة الى مصر .

ان « تخليص الابريز » هو الثمرة الطبيعية للرحلة . وفيه نتتبع تجربة الكاتب تلك المحاولة العميقة لفهم الحياة الجديدة

واقتباسها • فالمقارنات بين العيش فى مصر والعيش فى فرنسا لا تكاد تنقطع • وفى كل فصل يتدفق تيار من الوطنية المتأججة هو الذى يدفع الصعيدى المتحرر الى الكتابة • لقد أملى هذه الصفحات عزم شديد متوثب ، يريد أن تنطلق مصر مسرعة الى الأمام لتلحق بركب الانسانية المتقدمة •

وأنشأ رفاعة كتابه وبلوره فى كثير من التأنى والروية ، كان عليه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، وأن يلم بمبادىء العلوم الحديثة وأن يترجم ما يطلب منه ترجمته ، فاذا خلا الى نفسه فى أوقات الفراغ كتب ما تيسر له من « تخليص الابريز » • وكان يعود الى أوراقه فيضيف اليها سطورا جديدة عقب درس من الدروس ، أو مطالعة تأثر بها ، أو نزهة فى بعض أحياء العاصمة ، أو زيارة لسيلفستر دى ساسى « بالكوليج دى فرانس » ، أو لكوسان برسفال فى مدرسة اللغات الشرقية ، أو لجوزيف رينو بدار الكتب ، أو بعد حوار خصب مع جومار ، أو حديث شائق مع صديقه جول سلادان •

وفضلا عن هذه المصادر الشفوية ، كان رفاعة يستقى المعلومات من كتبه الدراسية ولاسيما فى الجغرافية والتاريخ ، ومن مقالات الصحف والمجالات التى شغف بقراءتها ، ومن هنا كان دأبه ، كلما ورد ذكر علم من الأعلام أو اسم مدينة شهيرة ، على اتحاف القارىء بمحصول غزير ثقيل من العلم المنقول • وينبغى ألا نلوم رفاعة على اسرافه فى الجمع من الكتب ، فقد كان متعطشا الى المعرفة ، تواقاً الى الوقوف على كل جديد وقديم • وان نهم هذا الطالب لظاهرة من الظواهر التاريخية التى يتميز بها عصر النهضة فى كل مكان ، فالنهضة تفتح للمعرفة ، وكشف عن المجهول ، وانتهاب لكنوز التراث الانسانى ، وقد صور «رابليه» (Rabelais) هذه النزعة فى قصة من أهم آثار الأدب الفرنسى فى القرن السادس

عشر عندما أعد لبطله العملاق « جارجانتوا » برنامجا موسوعيا يدرسه فى باريس ٠

على أن رفاعة ، وان مثل هذه النزعة باسترساله فى التعريفات والتحقيقات المختلفة ، لا يزال يبدو أمامنا بوجهه الأليف ، وجه « الواعظ » الذى اعتاد أن يتكلم ليرشد سامعيه ، الواعظ الذى يتحول الى « أستاذ » يشرح ويبحث ويترجم ، ويصبح المعلم الأول لشباب مصر الحديثة ٠

وعلى جانب هذه « النبذات » التى لا يخلو تجميعها وتلصيقها من سذاجة ، نستطيع أن نتسمع أصداء مطالعات أدبية أرقى وأظرف ٠ فرفاعة يفتتح الفصل الأول من مقالته الأولى بالرجوع الى أصل المجتمع وبداية الحضارة كما كان يفعل كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيون ممن اغتذى بأدبهم ، فقد كانت تماؤهم ثقة بالانسانية ، وثقة بتقدم العلم ، وثقة بذكائهم ، جعلتهم يتخيلون تاريخ الجماعة البشرية فى مختلف الأطوار ، وكأنهم يريدون اعادة خلق الدنيا وتشكيلها على ما يتمنونه من صور ٠

ومن الثابت أن رفاعة قد قرأ بعض مؤلفات « روسو » و « فولتير » و « مونتسكيو » ، ولا شك أنه فى حديثه الفكه عن الباريسيات والباريسيين ، وعن سرعة تنقلهم من زى الى زى ومن بدعة الى بدعة ، متأثر بصفحات شهيرة لمونتسكيو فى « الرسائل الفارسية » (Les Lettres Persanes)

وكان بين يدى رفاعة ، وهو يجمع مادة كتابه ويصنفها ، نماذج من كتب الرحلات ووصف الشعوب ، فهو يشير الى « رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية » و « رحلة فى بلاد الجزائر » دون أن يهتم بذكر اسم مؤلف هذه ولا اسم مؤلف تلك ٠

ولكنه يذكر مرارا وفى دقة كتابا ثالثا قرأه فى باريس ، واقترح عليه جومار أن يترجمه وفرغ فعلا من ترجمته قبل أن يتم « تخليص الابريز » بسنة على الأقل ، وذلك هو كتاب ديبنج : « لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها » ٠
(Depping : Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations.)

الذى عنونه رفاعة « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » ٠ ان هذا الكتاب الجامع يرجع اليه الى حد كبير ، الطابع الموسوعى الذى اتخذته « رحلة » رفاعة ٠ غير أنه علم رفاعة فن تقسيم مادته وتبويبها ، وحسبك القاء نظرة على فهرست هذا الكتاب من ناحية ، وعلى فهرست « تخليص الابريز » من ناحية أخرى ، حتى تقدر مبلغ ما يدين به رفاعة لديبنج ٠ فموضوعات فصول رفاعة عن باريس ، الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس ، هى موضوعات الفصل الأول والفصل الثانى والفصل الثالث من كتاب ديبنج ، على التوازى : المسكن ، والمأكل ، والملابس ، لقد مضى رفاعة يطبق على أهل باريس ما درسه ديبنج لدى شعوب الأرض المختلفة ٠ ولعل اطناب هذا الأخير فى حديثه عن النساء ، وعن التجارة ، وعن الألعاب والرياضة ، وعن الرقص والملاهى ، هو الذى أغرى رفاعة بالاطناب فى وصفها عند الفرنسيين ٠ ولا شك أن الشيخ رفاعة ، حينما أخذ فى تاليف كتابه الأول ، كان فى حاجة الى مثال يحاكيه ، ومرشد يقتفى خطاه ٠

وفى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، يوم أدى رفاعة امتحانه النهائى فى باريس ، قدم « تخليص الابريز » الى اللجنة التى ناقشته ، كانه رسالة تكميلية الى جانب اثنى عشر موضوعا مترجما (١) ٠

---

(١) Revue Encyclopédique, nov. 1831, t. XLVIII. pp. 521-523.

وفى شهر فبراير سنة ١٨٣١ ، حرص رفاعة قبل مغادرته باريس على أن يستطلع رأى المستشرقين سيلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال فى « تخليص الابريز » ، فعهد بمخطوطه الى كل منهما ، وأثبت ترجمة شهادتيهما فى كتابه • ومن خلال هذين التقريرين ، وتقرير ثالث طويل نشرته بعد عامين « الجريدة الآسيوية » • بقلم كوسان دى برسفال (١) نستطيع أن نعرف كيف كان ذلك المخطوط فى جملته ، لأننا لم نعثر بين أوراق رفاعة التى تحفظها أسرته الا على أجزاء متفرقة من مسودة « تخليص الابريز » • وعلى كل حال ، فان الصفحات الأربع التى ذيل بها كوسان دى برسفال مقالته ، لتكون أمثلة من نثر رفاعة ، هى أول ما نشر من الكتاب ، سنة ١٨٣٣ •

تستوقفنا اذن فى دراسة تكوين الكتاب ثلاثة أطوار : المخطوط ، والطبعة الأولى التى تمت فى بولاق سنة ١٢٥٠ هـ • سنة ١٨٣٤ م • ، ثم الطبعة الثانية التى تمت فى بولاق سنة ١٢٦٥ هـ سنة ١٨٤٩ • أما الطبعة الثالثة ، الصادرة فى سنة ١٩٠٥ م • وان كانت لا تختلف عن سابقتها ، فلا تعنى الباحث عن تطور رفاعة ، لأنها أعدت ونشرت بعد وفاته •

والى جانب تقريرات المستشرقين عن مخطوط « تخليص الابريز » ، لدينا اليوم من مسودته عدة أجزاء ، لم يرقم رفاعة صفحاتها ، وفيها نتتبع ما يأتى :

(أ) آخر صفحات « المقدمة » ، ابتداء من « بلاد غرناطة الجديدة » ، وأول صفحات « المقصد » حتى منتصف الفصل الثالث من المقالة الأولى عند عبارة « غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم » •

---

(١) Nouveau Journal A iatique, t. XI. Mars, 1933.

(ب) الصفحات الأخيرة في الكلام على أهل باريس ، أي من الفصل الثاني في المقالة الثالثة ، ابتداء من « ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربية مرأة فان العربجي يجهد خيله » حتى ترجمة « المادة الحادية عشرة » من الدستور الفرنسي .

(ج) الصفحات الأخيرة من الفصل الثاني عشر « في دين أهل باريس » ابتداء من « فساير من أراد أن تغفر ذنوبه » حتى نهاية المقالة الثالثة بنهاية الفصل الثالث عشر منها . وهنا تليها في المسودة مباشرة « المقالة الرابعة في ذكر نبذات من العلوم والفنون » . وهذه المقالة تبدأ « بنبذة » في « اللغة » يتصل بها الحديث عن « فن الكتابة » ، ثم عن « علم البلاغة المشتمل على البيان والمعاني والبديع » ، ثم عن « علم المنطق » حتى « ومثال التعريف اللفظي قولك الانسان هو الآدمي اذا فرضنا أن لفظ الآدمي أشهر وأعرف » .

(د) وقد وجدنا ورقة مزدوجة ، على ثلاث صفحات منها ترجمة عاجلة بخط رفاعة الطائفة من مواد القانون المدني التي تنظم الزواج في فرنسا ، أولها « ولنذكر لك عدة أحكام من شريعتهم المدنية » . ـ وثمة ورقة مزدوجة أخرى ، لاشك في أنها من مسودات « تخليص الابريز » اذ تبدأ احدى صفحاتها بهذه الجملة ، ومكانها في الفصل الحادي عشر من المقالة الثالثة : « وقد اخترعوا في باريس عربيات كبيرة تدور الى طريق المدينة وتوسق من عدة معدودة كالسفينة بثمن معلوم تسمى الأمنيبوس معناه لكل الناس » تلى هذه السطور محاولة قصيرة لبداية فصل جديد لم يتم « في السجن والجنايز والمقابر » لا يحمل رقما بعد . والطريف أن الجزء الثاني من الورقة عينها بصفحتيه يحمل تعريفا بالموسيقى الغربية مترجما من بعض كتب تبسيط العلوم ، وقد نقل رفاعة أيضا في هذا الحيز ثلاثة رسوم توضح أول علامات تدوين الموسيقى .

(هـ) كما وجدنا ورقة مزدوجة ثالثة ، مهد فيها رفاعة لفصل المنطق من مقالته الأخيرة بصفحة عامة عنوانها « الكلام جملى على علم الفلسفة » ، على حين اكتسى الجانب الآخر من الورقة بما قرأناه فى الكتاب من « الكلام على علم الحساب » . ولعل رفاعة قد أنجز ما وعدنا به فى عنوان تلك المقالة المدرسية الجامعة أى بذكر « نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة » فكتب بالفعل ــ نقلا عن مرجع فرنسى ــ فصولا عن « البحرية » وعن « علم مصالح البلدان المسمى بالأفرنجية الدبلماسيا » وعن « علم الميكانيقى » يعنى علم التحليل بالآلات وعن « الايدروليقى » وعن « علم الكيميا » وعن غيرها مما ضاع بعض أوراق هذه الكراسة الصغيرة التى تقدم لنا من خط المؤلف ومن أسلوبه مرحلة أكثر رسوخا ونضجا ، غير أنه عدل عن نشر هذا كله فى كتاب رحلته ، أو لعله أعده لطبعة تالية .

وتختلف الطبعة الأولى عن المخطوط فى الكم والكيف . فالمخطوط لم يكن يتألف كما لاحظنا الا من أربع مقالات ، رابعتها « فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . بل كانت هذه المقالة الرابعة ناقصة يوم تصفح العمل « كوسان دى برسفال » فلم ير سوى « لمحة فى الرياضة والفلك ومبادىء الهندسة والجغرافيا الطبيعية » . أضاف رفاعة اذن الى فصول تلك المقالة بعد رجوعه من باريس صفحات عن اللغة والمنطق والتاريخ ، وأضاف الى الكتاب خاتمة ومقالتين جديدتين رقمهما الرابعة والخامسة فأصبحت مقالة « العلوم والفنون » هى السادسة . وفى أولى المقالتين الجديدتين أودع أهم وثائق دراسته وامتحاناته ومراسلاته ، وفى الثانية روى ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠ . غير أنه نسى أن يصحح ، حتى فى الطبعة الثانية ، خطة الكتاب التى أعلنها فى مستهل « المقصد » فهى مازالت تنبىء القارىء بالمقالات الأربع القديمة .

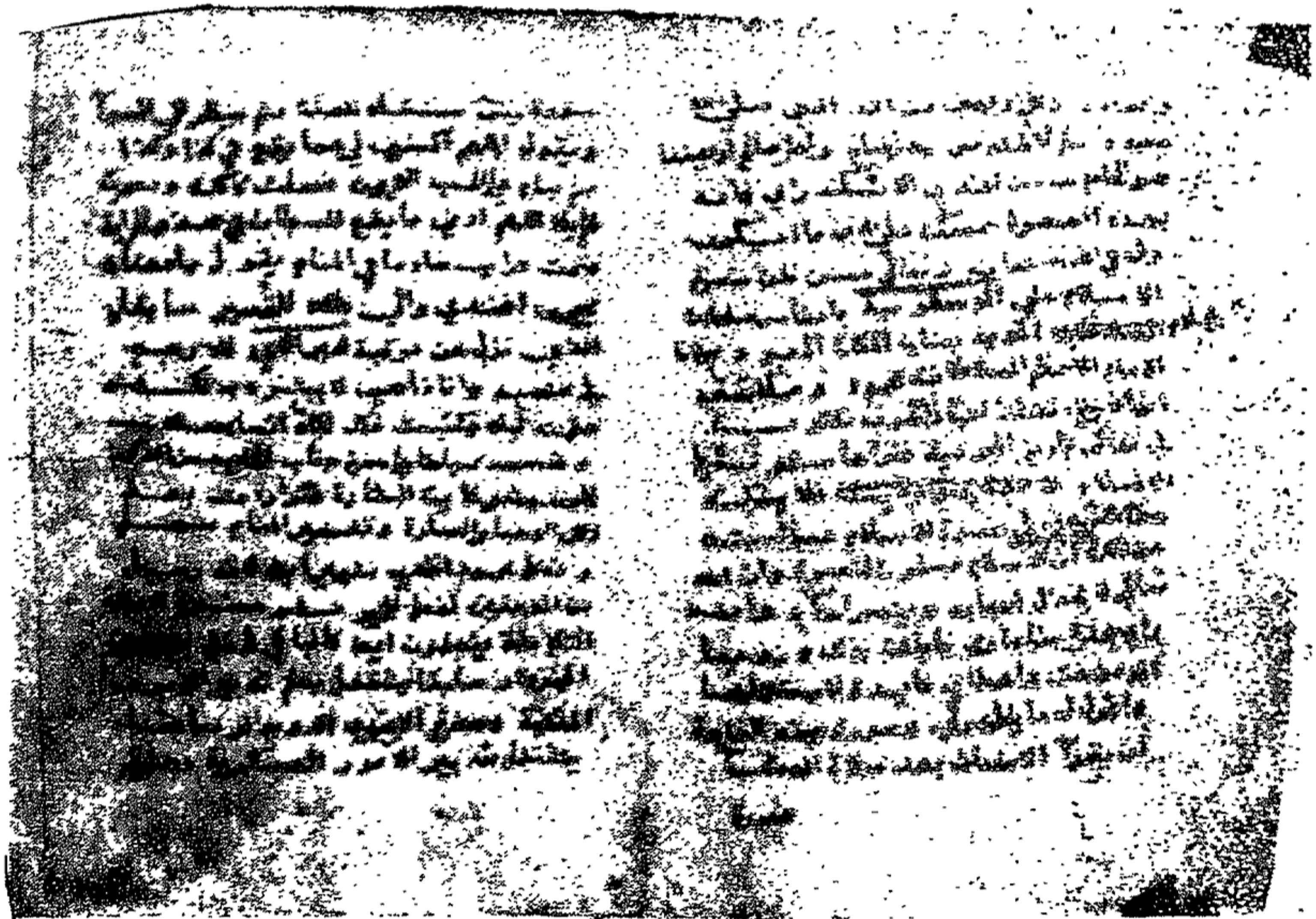
وعلى الرغم من ازدياد الكتاب بنحو ثلث حجمه بعد عودة

المؤلف الى مصر فقد حذف رفاعة بعض صفحات مخطوطه الباريسى قبل أن يسلمه للمطبعة · واذا كنا لا نستطيع احصاء جميع ما حذفه رفاعة ، لأننا لم نعثر على المخطوط كاملا ، فالثابت أنه حذف ـ على الأقل ـ نصين خطيرين ·

وفيما يلى النص الأول ، نقلا من المسودة ، ومكانه فى نهاية الباب الرابع من « المقدمة » بعد تسمية « حسن أفندى الاسكندرانى » والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم لاتخلو من رجل صالح ولعل صالح أربعيننا هو الحاج حسن أفندى الاسكندرانى · فانه بهذه السفرة تمسك على الدين ما أمكن · وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظن بنصرة الاسلام على الموسقوبية بأنفاس سلطان الاسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الامام الأعظم السلطان محمود · ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الاسلام ، فلايشك هذا الأفندى فى نصرة الاسلام · فسألته عن ذلك ، فكان يقول ان الاسلام مبشر بالنصرة ، وان الله تعالى لا يخذل أحبابه وينصر أعداءه وانه رأى جملة منامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق · وأعطانى فائدة لأستعملها وأقول ما يظهر لى · وصورة هذه الفائدة أن يقرأ الانسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلا للقبلة ، ثم ينظر الى السماء ويقول الهم اكشف لى عما يقع فى كذا وكذا ، ثم ينام على الجنب الأيمن · ففعلت ذلك ، ودعوت قائلا اللهم أرنى ما يقع للسلطان فى هذه الحرابة · فنمت ، فرأيت خادما فى المنام يقول ما معناه : محمود أفندى والى القصير سابقا الذى عن مرتبة أمير الأى قد رجع فى منصبه ، وأنا ذاهب لأبشره بذلك اهـ ·

فقمت ليلا وكتبت ذلك لئلا أنساه ، وقصصته صباحا على



من مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز »
صفحتان فى آخر مقدمة الكتاب حذفهما رفاعة عند طبعه

حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة • فتواردت بعدذ ذلك الأنباء السارة • وتفسير المنام سهل » •

لابد أن رفاعة ، وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هذا الكلام الذى كتبه قبل انقضاء ست سنين أو سبع – وعلى وجه التحديد قبل أن ينفرد المهردار برياسة البعثة – لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ، ورفض أن ينشره • وبالمثل لا نجد فى الكتاب المطبوع ثانى مصراعى هذه العبارة التى خطها رفاعة فى حديث رحلته من القاهرة الى الاسكندرية: « ولا فائدة لذكر بعض البلاد أو القرى التى رسينا عليها ، غير أنه حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى ابراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق » • فهو الآن قد يرى فى التبرك بالأضرحة افراطا فى السذاجة أيضا •

ولكن ، هل رأى من الافراط فى الجرأة أن يحتفظ بالفقرة الخطيرة التى أورد فيها اثبات علماء الافرنج لدوران الأرض حول الشمس ؟ هاهى ذى، كما نقلها من مخطوطة كوسان دى برسفال (١)، ومكانها بالمقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافيا الفلكية :

« وقال بعض علماء الأفرنج ان القول بدوران الأرض واستدارتها لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية ، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء فى معرض ونحوه جريا على ما يظهر للعامة لاتدقيقا فلسفيا ، مثلا : ورد فى الشرع أن الله تعالى وقف الشمس، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين وهذا يحصل بتوقيف

(١) Nouveau Journal Asiatique, t. XI, Mars 1833, pp. 245, 251.

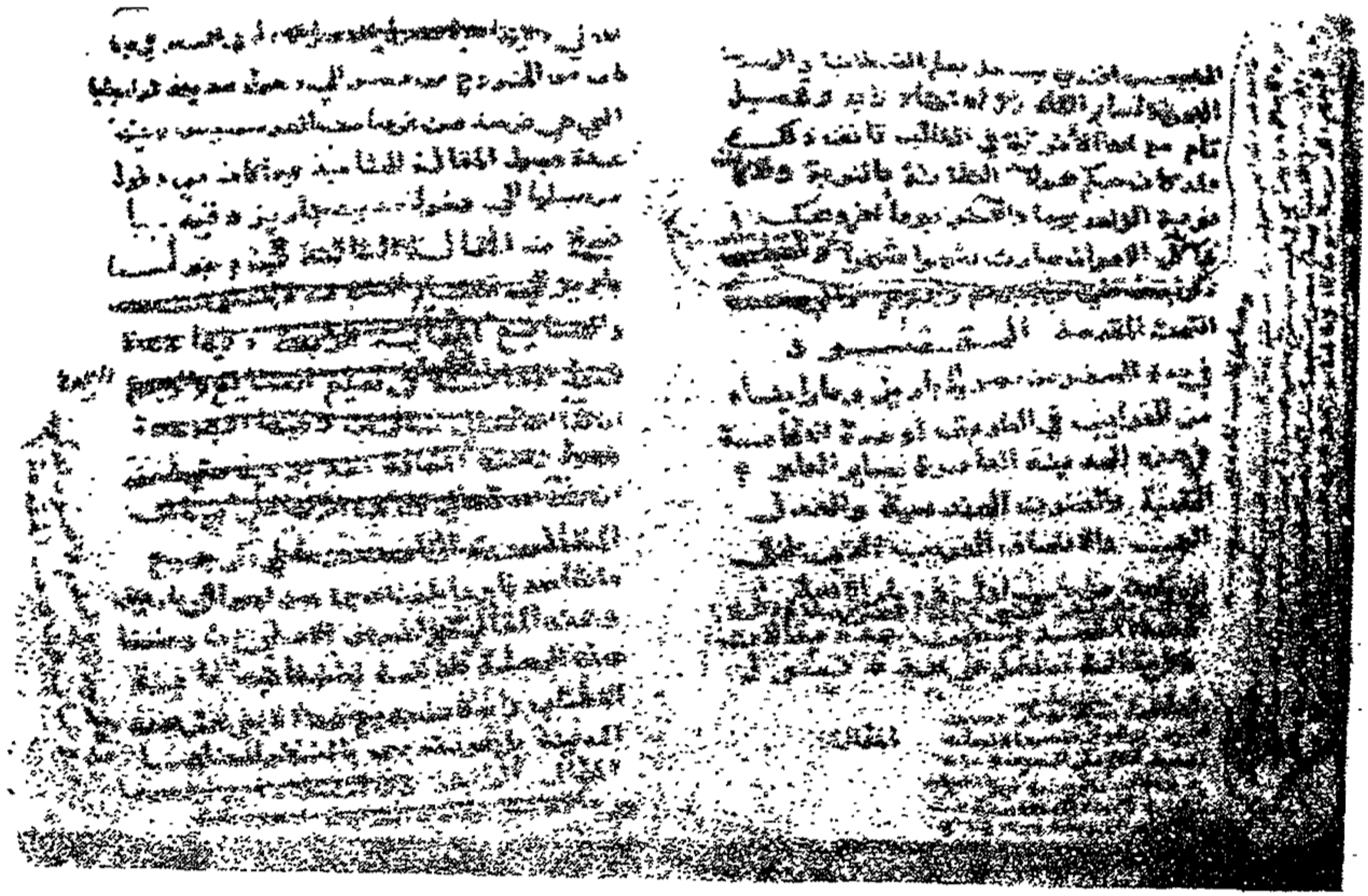
الأرض ، وانما أوقع الله الوقوف على الشمس لأنها هى التى يظهر فى رأى الأعين سيرها · انتهى · فظاهر كلامه أنه ارتكب غاية التأويل »·

لقد اقتنع رفاعة بالبراهين العلمية التى درسها ، ثم أعاد النظر فى مخطوطه ، فحذف هذه السطور ! وحذف كذلك الاشارة التى بدرت منه الى هذه المشكلة وهو يحذر مواطنيه ـ فى الفصل الثالث عشر عن أهل باريس ـ من « الحشرات الضلالية المخالفة للكتب السماوية » فقد كانت بقية الجملة : « كالقول بدوران الأرض ونحوه » · ويبدو أنه كان اذ ذاك شديد الحيرة ، فهو يعترف فى اللحظة نفسها بأنهم يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها »· ولابد من أنه وزن الأمور بعد أوبته الى مصر بميزان معاصريه ، فتحاشى مايعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف « جاليليو » وأن يعيد مأساته · واكتفى فى هذا الموضوع بما سبق له من تلخيص مناظرة « علماء » المغرب حول كروية الأرض وبسطها وحول دورانها وسكونها (١) · فلا خطر من ذكر آراء « العلامة الشيخ محمد المناعى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، والعلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » !

أما أسلوب « تخليص الابريز » فى المخطوط فكان مليئا بالأغلاط اللغوية والنحوية · وقد نبه « سيلفستر دى ساسى » الى هذه الظاهرة ، وعللها بأن رفاعة « استعجل فى تسويده » ، ورجاه أن « يصححه عند تبييضه » · وقد اختفى بالفعل عند طبع الكتاب لأول مرة عدد كبير من هذه الأخطاء ومن التعبيرات الركيكة والعامية فلقد وجد رفاعة فى مصر من أوقات الفراغ ومن صحبة أساتذة الأزهر ، ما أتاح له أن يصحح وينقح كتابه قبل طبعه ·

---

(١) فى بداية الفصل الأول من المقالة الثانية ·



نهاية « المقدمة » وبداية « المقصد » فى مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز »
لقد أضاف رفاعة أكثر من « مقالة » جديدة الى مادة كتابه الأولى

ولسنا نعنى أن الطبعة الأولى خلت من الأخطاء اللغوية ، فقد اشتغل رفاعة مرة أخرى ، وهو يعد الطبعة الثانية ، بمراجعة ألفاظه وتطبيق قداعد النحو والصرف وغنى عن القول أنه بدأ بتصحيح الأخطاء المطبعية • على أن الطبعة الثانية تمتاز فوق ذلك على الأولى بعدة زيادات وتعديلات أدخلها رفاعة فى مواضع مختلفة • من هذه الفروق ما يصحح فكرة أو يحددها ، ومنها ما يضيف ذكر أعمال تمت منذ نشر الطبعة الأولى ، غير أن معظمها لاينبئنا بجديد سوى رغبة المؤلف فى تحلية كتابه بما راح يجمعه من جميل النثر والشعر لكل مقام •

فمن التعديلات التى تصحح فكرة أو تحددها ، حذف رفاعة لكلمة « كفرة » التى استعملها أول الأمر مرادفة لكلمة « نصارى » فى قوله : « ثم ان بلاد أوروبا أغلبها نصارى أو كفرة (١) • وقد خط رفاعة هذا النعت مرارا فى مسودته ، فقد كان يقول مثلا فى تقديمه للدستور الفرنسى : « فلنذكره لك •• لتعرف كيف قد حكمت عقول الكفرة بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » • ولعل فى تكرار هذه الكلمة ما يدلنا على أن رفاعة كان يستخدمها آليا ، مرددا فى ذلك تعبيرا جاريا على ألسنة أهل عصره ، أفقده التكرار معناه ، ولم يتدخل رفاعة فى انشائه على كل حال • أما اذا كان له أن يعبر تعبيرا شخصيا ، يعنى فيه ما يقول ، بعد أن عاش فى أوروبا ، وخبر « الافرنج » ، وكتب عن دينهم وناقش فى هذا الموضوع سيلفستر دى ساسى ، فانه يتدخل فى التعبير ليزيل هذا المرادف الذى اقتنع بأنه غير مرادف • وفى الوقت نفسه

---

(١) فى الباب الثالث من المقدمة •

يحرص المؤلف على اكتساب رضا أغلبية قرائه فقد ساءتهم بلاشك نهاية « عبد العال » ، أغا الانكشارية الذى هاجر من مصر الى فرنسا ثم تنصر « بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل » وها هو ذا رفاعة يضيف فى الطبعة الثانية رواية أخرى لنهاية عبد العال : « ويقال انه سمع منه عند موته يقول : أجرنى يارسول الله ، ولعله ختم له بخير وعاد الى الاسلام فقال بلسان الحال :

الحمد لله الحنيفة ملتى   والله ربى وابن آمنة نبيى »(١)

ومن التعديلات التى تبعت عامل الزمن . نجد بعض ما يدل على تغير التاريخ ، ففى الطبعة الأولى نقرأ أن المهردار « يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية » وفى الطبعة الثانية نقرأ الفعل فى صيغة الماضى: « اشتغل » (٢) كما يشير رفاعة الى بعثة تعليمية جديدة الى « بلاد النيمسا » (٣) وبعد أن شبه الاسكندرية بمرسيليا فى الطبعة الأولى، يضيف فى الطبعة الثانية : « ولما ذهب اليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوربا » (٤) . وكان فى الطبعة الأولى قد تمنى أن تقتبس مصر نظام رش الشوارع بمثل العربات التى أعجب بها فى باريس ، وقد تحققت أمنيته قبل نشر الطبعة الثانية فكتب فى آخر تلك الفقرة بين قوسين : (قد صار الآن جل ذلك بمصر) (٥) .

على أن أكبر الزيادات حجما فى الطبعة الثانية هى أبيات الشعر التى دأب المؤلف الأديب على أن يستشهد بها ، ويضع صفحات مستحدثة تخللت الكتاب وفيها يستطرد رفاعة الى ذكر موضوعات من تاريخ الحضارة العربية . ومن أطرف هذه الصفحات ما علق به

(١) فى الفصل الأول من المقالة الثانية .
(٢) فى الباب الرابع من المقدمة .
(٣) فى آخر الباب الثالث من المقدمة .
(٤) آخر الفصل الأول من المقالة الأولى .
(٥) فى الفصل الأول من المقالة الثالثة .

على شخصية الاسكندر ذى القرنين ، فقد مضى يمزج بين أساطير اليونان وأساطير العرب ، ملبيا نزعته الجديدة الى الدراسات المقارنة، رافعا فكرة بحثه هذا فى « الميتولوجيا المقارنة » الى الأكاديمية الفرنسية (١) لقد تفاعلت فى عقله معارف من الشرق ومعارف من الغرب فأخصبت • وثمة صفحة أخرى ، يشيد فيها رفاعة بسالف مجد العرب ردا على ما يراه من تفوق الافرنج ، وهو يسجع العبارة تلو العبارة ، حتى ينتهى بمدح ولى النعم (٢) • وحينما يضيف فى اطناب ترجمة حياة الفارابى لأنه شبه به « سيلفستردى ساسى »(٣)، أو يضيف نوادر أبى بكر الخوارزمى والصاحب بن عباد (٤) نتأكد نحن أن رفاعة قد عاد فى مصر الى أحضان الأدب العربى •

وماذا أراد رفاعة من كتابة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ؟ لقد أفصح عن أغراضه فى « الخطبة » التمهيدية حيث قال :

« ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التى يقال فيا انها عرائس الأقطار وليبقى دليلا يتهدى به السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يقهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها ••• فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة•••وأنطقتها بحث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع « والحق أحق أن يتبع » •

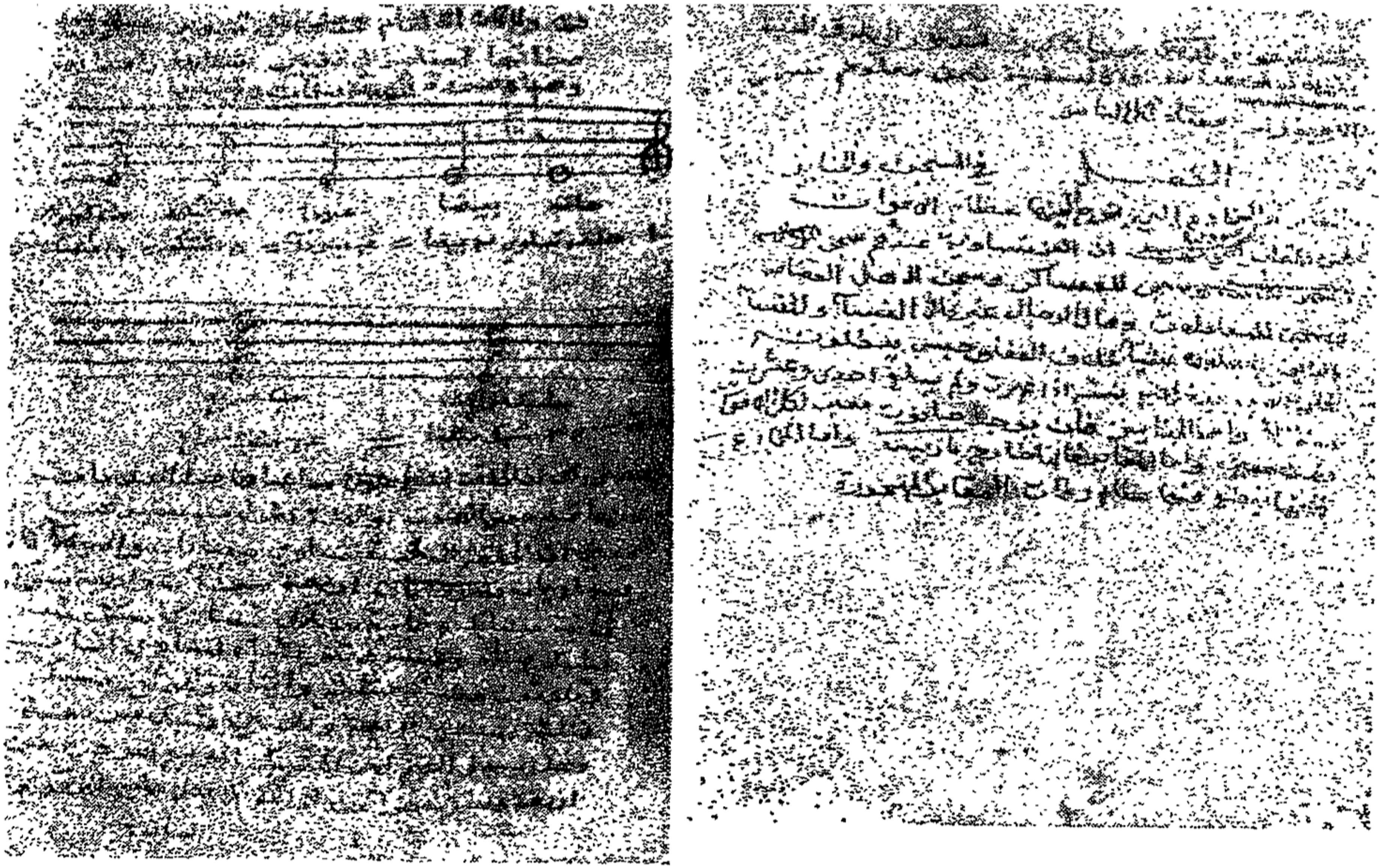
---

(١) فى الفصل الأول من المقالة الأولى

(٢) فى الباب الثالث من المقدمة •

(٣) فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة •

(٤) انظر المصدر السابق •



من مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » • صفحة فى التعريف بالموسيقى الغربية ــ لم تطبع ، وبداية فصل « فى السجن والجنائز والمقابر » ــ لم تتم

لقد وضع نصب عينية اذن أن يقدم للمسافر الى فرنسا دليلا مفيدا · ولقارىء الأدب العربى كتابا طريفا ، وللشعوب الاسلامية دعوة الى النهوض والأخذ من حضارة أوروبا · حاول أن يجعل من « ديوانه النفيس » ثلاثة أشياء فى آن واحد : رحلة عملية وتحفة فنيــة ، ودرسا وطنيــا · فالى أى مدى حقق كل غــرض فى هذه الأغراض ؟

لكى يتحدث عن فرنسا بوصفها بلدا سياحيا كان عليه أن يجوب أرجاءها ، وأن يزور أشهر مدنها ومعالمها · ولكنه لم ينتقل من مكان الى مكان ، فظل مجال خبرته ومشاهداته محدودا · لم يقم طوال السنوات الخمس التى قضاها بعيدا عن مصر الا فى باريس ، باستثناء بضعة أسابيع أنفقها فى مرسيليا · واذا كان قد استروح نسائم الريف الفرنسى من نافذة العربة التى قطعت به الطريق الى العاصمة ، فانه يجهل الحياة فى الأقاليم · لذلك لامه سيلفستر دى ساسى قائلا · « غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهــل باريس » وفى الحــق أن عنوان الكتاب ينصب على باريس وحدها لا على فرنسا بأسرها ·

لقد اعتمد رفاعة فى كتابته عن باريس على ملاحظاته الخاصة ، ومحادثاته مع أهلها ، كما اعتمد على بعض الكتب التى تناولت بعض الحوادث الخاصة بالحياة هناك ، ولكنه عندما كان يتكلم عن فرنسا عامة كان يتكلم عنها من خلال ثلاث نوافذ احداها مشاهداته خارج باريس · ومن الحق أن نقــرر أن هذه كانت محدودة فى العــدد والنطاق ـ وثانيتها قراءاته عن الأمة الفرنسية مما كتبه المؤلفون الفرنسيون ، وثالثها باريس نفسها ، فقد اتخذها مثالا لما يحدث فى فرنسا جميعها · ولعله هنا كان أميل الى التعميم فميا كان الأولى به التخصيص · كما أشار الى ذلك أحد أساتذته حينما عرض عليه رفاعة أصول كتابه · وخير ما نصور به هذا الكتاب من حيث وصفه

لأهل فرنسا هما العبارتان اللتان أثبتهما رفاعة فى الكتاب نقلا عن بعض الأساتذة الفرنسيين :

فقد كتب لـه الأستاذ سلفستر دى ساسى : « أما بعد فانـه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك • وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد ينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، يعجب من وقف عليـه • ولا بأس أن نعرض خط يدنا على مسيو جومار » •

وكتب الأستاذ دى ساسى العبـارة الآتية الى مسيو جومار : « لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ ــ الا اليسير منه ــ فحق لى أن أقول ، انه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنـه يشتمل على بعض أوهام اسلامية • ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم ، وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن » •

وقد جد رفاعة فى معالجـة موضوع « تخليص الابريز » من نواح ثلاث ، مزودا السائـح بالمعلومـات ، متحفا القـارىء بجودة التصنيف ، مقارنا دائما بين أحوال فرنسا « العجيبة » وأحوال مصر التى ينبغى اصلاحها • ويعترف رفاعة بأنه رشح كتابـه بعد ذلك « ببعض استطرادات نافعـة ، واستظهارات ساطعـة » ، أى بكل ما وجده مفيدا أو جميلا • وكثيرا ما بدت له فصول كتب الجغرافية والتاريخ الفرنسية مفيدة ، وكثيرا ما بدت له أبيات الشعر العربى التى يحفظها جميلة ، وليس يدهشنـا الآن أن نراه قد أفسـح فى

« رحلته » مكانا لأربعة كتيبات مستقلة عنها كان أجدر به أن ينشر كلا منها على حدة ، وهى ترجمته للدستور الفرنسى ، وترجمته « لنصيحة الطبيب » ، وتاريخه لثورة ١٨٣٠ ، ومقتطفاته من » العلوم والفنون » • ولقد شرح المؤلف وجهة نظره فيما يختص بالمقالة الأخيرة ، فقد أراد أن يكمل فائدة رحلته للقارىء بايراد « ثمرتها » أيضا • وفى الواقع ، كانت لفظة « باريس » بالنسبة لرفاعة لفظه جامعة شاملة ، تمثل فى ذهنه البعثة الدراسية ، والطريق بما فيه الاسكندرية ، والمنظمات الأوروبية ، والعلم الحديث • وذلك ما يبرر عنوانه الغريب ، فقد كانت كتابته فى هذه الموضوعات كلها استخلاصا للذهب من مقامه الثمين فى باريس ، وتلخيصا لمعارفه التى استقاها عن باريس ومعارفه التى حصلها فى باريس •

واذا كان لابد لنا أن نلخص أسلوب رفاعة فى الكتاب فان ذلك يتلخص فيما يأتى : أنه كان يتحرر من الأسلوب العتيق ، الذى كان سائدا فى عصره بالتزام السجع والمحسنات البديعية ، حينما كان يكتب فيما لا يحتمل التلكؤ الذى تقتضيه هذه القيود اللفظية ، وحينما كانت الأفكار التى يتناولها ، كتابة أو ترجمة ، أهم فى نظره من الاحتفال باللفظ اذا كان يرمى الى نشر معارف جديدة بين جماهير الشعب ، حتى لقد ذهب فى سبيل ذلك الى ابتكار عبارات عربية تؤدى المعانى الفرنسية التى لم يجد ما يقابلها فى اللغة العربية ، وأحيانا لجأ الى تعريب اللفظ الفرنسى بوضعه فى صيغة عربية ، مع قدر غير هين من النجاح فى ذلك ، مما سنذكر له بعض الأمثلة •

على أنه كان يعود الى السجع والحفاوة باللفظ فى بعض الأحيان ، ولا سيما فى استطراداته التى كان يستعرض فيها مقتبساته من الأدب العربى الذى كان سائدا فى عصره ، فمن ذلك أنه بعد أن ترجم « نصيحة الطبيب » فى نحو عشرين صفحة ، فى عبارة مرسلة اقتضتها طبيعة الموضوع التى لم تكن تحتمل السجع ،

عقب ء ذلك بخاتمة فى نحو عشرين سطرا أتبع فيها شوقه للسجع بعد أن احتمى منه فى أثناء الترجمة ٠

ومن خصائصه الأسلوبية أنه كان كثيرا ما يبدأ فصول كتابه بقوله : اعلم أن كذا وكذا وهو فى ذلك خاضع لأسلوب عصره ٠ على أنه ، وهو الشيخ الأزهرى الوفى لثقافته ، لم يجد بأسا فى أن ينتقد كتب الأزهر وطريقة تأليفها ودراستها ٠ فيقول مثلا « واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا (فرنسيا) لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها ٠ وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذي يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها ٠ وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش ، الا نادرا ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة ، تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافيسة فى افهام مدلولها فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ٠ وأما غير ذلك فهو ضياع ، مثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ونحو ذلك »٠

أما الاستطراد فهو ظاهرة من ظواهر أسلوبه ، يلجأ اليه أحيانا لمناسبة يرى فيها فائدة لقرائه ، وأحيانا لمجرد تداعى المعانى فى ذهنه ، ولو لم يكن الاستطراد ذا فائدة فيما هو بصدده ٠

ويسترعى نظرنا استطرادان على سبيل المثال : يدلان على ما كان يختلج فى صدر هذا الرائد العظيم من آمال لأمته ، وما كان يشعر به مما هو جار فى بلاده وقد تنسم نسيم الحرية فى خارجها . ففى الفصل الذى يتكلم فيه عن تدبير الدولة الفرنسية . يستطرد عند الكلام على مظاهر العدل فى الدستور الفرنسى باقتباس عدة عبارات وأشعار عربية . ونكاد نوقن أن شعوره بالحاجة الى العدل فى بلاده دعاه الى الاستطراد بقوله : « وقلوب الرعية خزائن ملكها. فما أودعه اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم » .

وعند كلامه فى كسب مدينة باريس ومهارتها ، نسمعه يتنفس ما فى نفسه عن الحكم فى مصر اذ يقول : « قد يوجد بها – باريس – من أهالى الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار ، أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار . ولا شك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ما عنده هاد ولا شفيع
رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

ونذكر فيما يلى بعض محاولات رفاعة فى الترجمة كما اشرنا الى ذلك :

فقد عالج رفاعة الترجمة فى باريس:مقارنة فى سبيل الادراك . فعندما أخذ يترجم دستور فرنسا ، نشطت ذاكرته فى البحث عن مصطلحات من تاريخ النظم الاسلامية تعادل المصطلحات الفرنسية ، ووجد بعض ما يريد فوضع مقابل le loi كلمة « الشريعة » ومقابل le trésor public « بيت المال » ، ومقابل departement

« عماله » ومقابل le prefét « المحتسب » الخ • وعندما أخذ فى ترجمة نصوص عمليـة استعمل ـ متبعـا نفس الاتجاه ـ تسميات العلوم القديمة عنـد العرب فترجم « الميـكانيكا » بعلم « الحيـل » والتاريـخ الطبيعى بعلم « التولـدات أو المواليـد الثلاثة » والفلك أو الجغرافيا الرياضية بعلم « الهيئة » الخ •

انه يحاول أن يبعث من التراث العربى قوالب التعبير الثقافية والجمالية التى تقابل القيم الفكرية الحديثة ، وتفاصيل الحياة التى يعاصرها • ولكنه يصطدم بالعـدم فى كثير من الأحيان ، فاللغـة العربية التى بين يديه لغة قد تحجرت منذ قرون طوال ، وتخلفت عن الركب ، وأصبحت عاجزة عن تسمية محاصيل الحضارة الأخيرة • وكم كان يتمنى لو أنه استطاع أن يوفق دائما بين ما يجده فى موارد الفرنسية والعربية من الجرس والمعنى فى آن واحد ، كما وفق بين كلمة « شارت Charte » وكلمة « شرط أوشريطة » وطلع علينا بكلمة جديدة هى « الشرطة » ! غير أن مثل هذا الانتقاء لم يتوفر له ولم يتيسر ، وهيهات أن يقع الحافر على الحافر مادامت أرض فى الشرق وأرض فى الغرب فيضطر رفاعة الى الاحتفاظ بالكلمة الفرنسية راسما اياها بحروف عربية ، لا سيما اذا كانت من الأسماء الجغرافية أو أسماء الأشهر ، فضلا عن أسماء الأعلام • وهو ينقل تلك الألفاظ من الكتب نقلا صوتيا تاما ، أى باثباته كل حرف يراه فى الأصل وبهذه الدقة نسخ : washington : وسهنجتون،و Afghanistan أفغهانستان ، و Etats-unis • الايتازونيـا (١) • وأما غـير أسماء الأعلام ، فانه ينقلها نقلا صوتيا مع شرح معناهـا للقارىء ، مثل سبكتاكل Spectacle ، بال Bal ، شمبر دوبير Chambrt des Paris ، أكدمـة Académie ، فسيولوجيـا Phisiologie ، أمنبوس Omnibus ، دلجنس Diligence ، رسطراطور restaurateur ، جرنال Journal الخ •

(١) هى الولايات المتحدة الأمريكية

على أنه يقنع بترجمة banguiers بصيارفة ، و acteurs بلاعبين ، و musiciens بآلاتية · وتوخيا للوضوح فى نقل المعنى، قد يلحق رفاعة باللفظة الجديدة تعريفا كاملا كما قال فى ترجمة Chambre des Séputés · « ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم » · فان الألفاظ فى رأيه هى التى ينبغى أن تكون فى خدمة المعانى ، وان العلة التى أوجدت اللفظ الأصلى هى التى ينبغى ابرازها فى أدائه بلغتنا · وهكذا يترجم – فى المادة العشرين من « الشرطة » après un délai de dix jours بعد التفكر عشرة أيام لأن غاية تلك « المهلة "délai » هى دعوة المجلس المذكور الى اعادة النظر فى قراراه أى « التفكر » ·

وبعد فمن انصاف رفاعة فى حكمه ونزاهته أن نقرر هنا أن اعجابه بفرنسا والفرنسين لم يكن اعجابا أحمق ، لايرى الاالحسنات، فالى جانب ما ذكره من فضائلهم ومزاياهم ، سطر كثيرا من مثالبهم فمن ذلك حديثه عن بخلهم ، « وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته ، لا هبته ، الا اذا وثقوا بالمكافأة · وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم » ·

ويتكلم عن الشحاذين المحترفين عندهم فيقول · « لأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ، حتى انهم يتشكلون فى صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم » ·

كما أنـه أشار غير مرة الى الاباحيـة المنتشرة بين نسائهـم ، مما نتركه للقارىء يجده فى الكتاب ·

وأخيرا لا نختم هذه المقدمة دون أن نشير الى ما كتبه رفاعة عن اغتصاب فرنسا للجزائر الباسلة التى نهضت اليوم نهضتها الثائرة

لاسترداد استقلالها . فقد روى رفاعة أنه عندما جاء وصل خبر وقوع الجزائر فى يد الفرنسيين الى « رئيس الوزراء (بولنياق) أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور ... وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث ان مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه على ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية ، صار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة . على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه . وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول . وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب وأهمية لا تقتضى ذلك بل بمجرد ارضاء هوى النفس، واذا نصر الهوى بطل الرأى . ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه ما معناه أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ولا زالت كذلك (انتهى) . مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر انما هو مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشؤها التكبر والتعاظم ... فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه ، وخربوه وأفسدوا جميع ما فيه ، حتى انه تخفى ، ولم يعلم له أثر ، ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا ولا زال مذموما مخذولا ، قال الشاعر :

لا تعجبن ، رويدا ، انها دول

دنيا تنقل من قوم الى قوم »

وبعد : فهذا كتاب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » نقدمه مع التعريف به وبكاتبه العظيم ، بمناسبة احتفال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بذكرى هذا الرائد للنهضة الفكرية العربية الحديثة ·

القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٥٨

مهدى علام   أنور لوقا   أحمد أحمد بدوى

هذه رحلة الفقير الى الله تعالى رفاعة بدوى رافع الطهطاوى الى ديار فرانسا المسماة بتخليص الابريز الى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بايوان باريس ٠

تقريظ شيخنا شيخ الاســـلام الشيخ العطار شيخ الجامع الأزهر على هذا الكتاب ســبحان من أظهر عجائب مصنوعاته في اختلاف أوضـــاع مخلوقاته ★ وتبـاين أنواع العالم واختلاف هيئاته ★ يـرى ذلك بعين الاستبصار ★ من ولج فى البحار واقتحم القفار ★ فان السفر مرآة الأعاجيب ★ وقسطاس التجاريب ★ وقد أودع فى هذه الرحلة مؤلفهـــا الأريب ★ والفاضل الذكى اللبيب ★ ما شـاهده من عجائب تلك البلاد ★ وأحوال هؤلاء العبـــاد ★ ما يحرض العاقل على الأسفار ★ والتنقل فى الأمصـــار ★ حتى يزداد بذلك علما يقينا ★ ويفوق بالاحاطة بأحوال عبـاده فى الزمن اليســـير بما لايدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا ٠

حرره الفقير حسن العطار

خادم العلم بالأزهر

عفا الله عنه

(الوجه الأول من الورقة الأولى بعد الفهرست فى طبعة بولاق سنة ١٢٦٥ هـ) ٠



رفاعة رافع الطهطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من سير أقدام الأنام الى ما مضى فى سابق علمه ، ويسر للانســـان الاقدام على محتم قضائه وحكمــه ، فلا محيص لقوى وضعيف ، وشريف ، عما جرى فى أم الكتاب ، ولا مفر لغنى وفقير ، وخطير وحقير ، عن الاقتراب الى مطوى ذلك الحجاب ٠

أحمده سبحانه وتعالى حمد من ابلاه فصبر ، وأغناه فشكر ٠ وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير الى مرضاته ، فتنزه في رياض القبول وجناته ٠ وأصلى وأسلم على من سارت ركائب شــوقه الى مدبره ، وأشارت مواكب حسن خلقــه الى طيب عنصره : سيدنا محمد الذى سافر الى الشام وهاجر الى المدينة ، وسار من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وكان جبريل أمينه ٠ وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه ٠

أما بعــد : فيقول العبد الفقير الى أمداد ســيده ومولاه ، السائر حيث وجهه وولاه ٠ المعتمد على الكريم النــافع ، رفاعة ابن المرحوم الســـيد بدوى رافــع الطهطاوى بلدا ، الحسينى القاسمى نسبا ، الشافعى مذهبا : لما من الله سبحانه وتعــالى على بطلب العلم بالجامع الأزهر والمحل الأنور ، الذى هو جنة علم دانية الثمار ، وروضــة فهم يانعة الأزهار ، كما قال أســتاذنا العلامة العطار :

لازم اذا رمت الفضائل مسجدا　　بشموس أنـوار العلوم تنورا
فيه رياض العـلم أينع زهرها　　فلذلك المعنى تسمى «الأزهرا»

وقال بعضهم ــ وأحبسن ــ بيتين ، معرضا بعلماء الحرمين :

ومن يغترب عن « أزهر » العلم فلينح
على بعـد دار العـلم والعلمـاء
ففيـه بحـور طاميـات ، وغيره
بحـور عـروض لاتجود بمـاء (١)

وحصلت ما يسر به على الفتاح مما يخـرج به الانسـان من الظلام ، ويمتاز به عن مرتبة العوام ، وكنت من معشر أشراف جارت عليهم الأيام ، بعد أن أجرت غيثها فى ديارهم ، وأشـارت الى نصبهم (٢) الأعوام ٠ بعد أن نصبت أعلام راحتها فى مزارهم ، ومن المركوز فى الأسماع فى القديم والحديث ، وعليه الاجماع بعد الكتاب والحديث ، أن خير الأمور العلم ، وأنه أهم كل مهم ٠ وأن ثمرته فى الدنيا والآخرة ، صاحبه تعود ، وأن فضله فى كل زمان ومكان مشهود ٠ سهل لى الدخول فى خدمة صاحب السعادة أولا فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية ، ثم منها الى رتبة مبعوث الى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية ٠ فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ، لا سـيما شيخنا العطار (٣) ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبـار ، والاطلاع على

(١) فى العروض تورية ، فالعروض ميزان الشعر ، واسم لمكة والمدينة ٠
(٢) النصب : التعب ٠

(٣) هو الشيخ العطار ، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) وتتلمذ على أكابر علماء عصره ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ ٠ وظل فى منصبه الى ان توفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥) ٠

غرائب (ص ٥،٤) الآثار ، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة • وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع • التى يقال فيها : انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية - على حسب ظنى - شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس • ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها • فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة وفى عهده ، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون ، فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة ، نزهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع • والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله اننى ، مدة اقامتى بهذه البلاد ، فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه ، واياك أن تجد ما أذكره لك خارجا (١) عن عادتك ، فيعسر عليك تصديقه ، فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيز الافراط والمبالغات • وبالجمله فبعض الظن اثم ، والشاهد يرى مالا يراه الغائب :

واذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت مدركا لا تمار (٢)

واذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألا أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم

---

(١) فى المطبوعة : خارقا •

(٢) فى المطبوعة : لاتمارى •

باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها ، على حسب ما يقتضيه الحال • ومن المعلوم أنى لا أستحسن الا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية •

وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائه ، بل هي مشتملة أيضا على ثمرته وغرضه ، وفيها ايجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها ، وعلى (١) طريق تدوين الافرنج لهـا ، واعتقادهم فيها ، وتاسيسهم لها ، ولذلك نسبت فى غالب الأوقات (ص٥) الأشياء التى هى محل للنظر أو للاختلاف ، مشيرا الى أن قصدى مجرد حكايتها •

وقد سميت هذه الرحلة : « تخليص الابريز (٢) ، فى تلخيص باريز » ، أو : « الديوان النفيس ، بايوان (٣) باريس » •

وقد رتبتها على مقدمة ، وفيها عدة أبواب ، وعلى مقصد ، وفيه عدة مقالات ، وكل مقالة فيها عدة فصول ، أو كتب مشتملة على فصول ، وعلى خاتمة ، ـ راجع الفهرست فى أول الكتاب ـ •

وقد حاولت فى تاليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز ، وارتكاب السهولة فى التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضـه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى ، من فوائد الفرائد ، وبما لايستقصى ، من جزائل الخرائد • (شعر) :

---

(١) فى المطبوعة : على بدون واو :

(٢) ذهب ابريز : أى خالص •

(٣) الابواء : المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حوائط •

فاذا بـدا لا تستقلوا حجمـه   وحياتكم ، فيـه الكثير الطيب

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتـاب مقبولا ٠ (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سـائر أمم الاسلام من عرب وعجم ٠ انه سميع مجيب ، قاصده لايخيب ٠

المقـــدمة

الباب الأول

في ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد ، التى هى ديار كفر وعناد ، وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد ·

أقول : ان هذا يحتاج الى تمهيد ، وهو أن الأصل فى الانسان الساذجية ، والخلوص عن الزينة · والوجود على أصل الفطرة ، لايعرف الا الأمور الوجدانية ، ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها ، وانما كشفت له بالصدفة والاتفاق ، أو بالالهـام والايحاء ، وحكم الشرع أو العقل بنفعها ، فاتبعت وأبقيت ·

مثلا : كان فى أوائل الزمن ، يجهـــل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران ، لجهل النار بالكليـــة عندهم ، ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس ، أو أكل الأشـــياء النيئة ، كما هو باق فى بعض البلاد المتوحشة الى الآن ، ثم حصل اتفاقا أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان ، بمصـادمة حديدة أو نحوها ، ففعل مثل ذلك ، وقدم وأخرج النار وعـرف خاصيتها · وكان (ص ٧) فى الناس من يجهل الصبغ ، والتلوين للثياب باللون الأرجوانى مثلا ، فرأى بعضهم كلبا أخذ محارة من

البحر ، وفتحها وأكل ما فيها ، فاحمر حنكه ، وتلون بما فيها ، فأخذوها ، وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون ، كما يحكي ذلك عن أهالي « صور » ببر الشام ٠

وكانت الناس في أول الأمر تجهل ركوب البحر ، ثم بالهام الهي ، أو باتفاق بشرى ، عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء ، فصنعوا السفينة ، ثم تبحروا فى السفن ، وعمروها ، ونوعوها أنواعا ، فكانت أولا صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها ، حتى صلحت للجهاد والحرب ، وقس على ذلك ما أشبهه ، من المحاربة بالسهام والرماح أولا ، ثم بعد ذلك بالسلاح ، ثم بالمدافع والأهوان ٠

وقد كانت الناس فى أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ، ثم بالهام الله تعالى ، وبارساله الرسل صاروا يعبدون (١) الها واحدا ، فكلما تقادم الزمن في الصعود ، رأيت تأخر الناس فى الصنايع (٢) البشرية والعلوم المدنية ٠ وكلما نزلت ، ونظرت الى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم فى ذلك ٠ وبهذا الترقى ، وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالة الأصلية ، والقرب منها ، انقسم سائر الخلق الى عدة مراتب :

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين ٠

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين ٠

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة ، والتحضر ، والتمدن ، والتمصر المتطرفين ٠

---

(١) فى المطبوعه . يعبدونه ٠

(٢) فى المطبوعة ٠ فى الصنايع ٠

مثال المرتبة الأولى : همل بلاد [المتوحشين] الذين هم دائما كالبهائم السارحة ، لايعرفون الحلال من الحرام ، ولا يقرءون ، ولا يكتبون ، ولا يعرفون شيئا من الأمور المسهلة للمعاش ، أو النافعة للمعاد ، وانما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم ، فيزرعون بعض شيء ، أو يصيدونه ، لتحصيل قوتهم ، ويخصون بعض أخصاص أو خيام ، للتوقى من حر الشمس ونحوه ·

ومثال المرتبة الثانية : عرب البادية ، فان عندهم نوعا من الاجتماع الانسانى · والاستئناس ، والائتلاف ، لمعرفتهم الحلال من الحرام ، والقراءة والكتابة وغيرها ، وأمور الدين ، ونحو ذلك ، غير أدهم أيضا لم تكمل عندهم درجة الترقى فى أمور المعاش ، والعمران ، والصنائع البشرية ، والعلوم العقلية والنقلية ، وان عرفوا البناء ، والفلاحة ، وتربية البهائم ، ونحو ذلك ·

ومثال المرتبة (ص ٨) الثالثة : بلاد مصر ، والشام ، واليمن ، والروم ، والعجم · والافرنج والمغرب ، وسنار ، وبلاد أفريقية (١) على أكثرها ، وكثير من جزائر البحر المحيط ، فان جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات ، وعلوم وصناعات ، وشرائع وتجارات · ولهم معارف كاملة فى آلات الصنائع ، والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق ولهم علم بالسفر فى البحور ، الى غير ذلك ·

وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها ، وحسن حالها ، وتقليد شريعة من الشرائع ، وتقدمها فى النجابة والبراعة فى الصنائع المعاشية ·

مثلا : البلاد الافرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم

---

(١) فى المطبوعة : أمريقة ·

الرياضية ، والطبيعية ، وما وراء الطبيعة أصــولها وفروعهــا ، ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية ، وتوصلوا الى فهم دقائقها وأسرارها ، كما ســنذكره · غير أنهم لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ، ولم يسلكوا سبيل النجاة ، ولم يرشــدوا الى الدين الحق ، ومنهج الصدق ·

كما أن البلاد الاســلامية قد برعت فى العلوم الشرعيــة والعمل بها ، وفى العلوم العقلية ، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت الى البلاد الغربية فى كسب مالا تعرفه ، وجلب ما تجهل صنعه ، ولهذا حكم الفرنج بأن علماء الاسلام انما يعرفون شريعتهم ولسانهم ، يعنى ما يتعلق باللغة العربية ، ولكن يعترفون لنا بأنا كنا أساتيذهم فى سائر العلوم ، وبقدمنا (١) عليهم ·

ومن المقرر فى الأذهان ، وفى خــارج الأعيان أن الفضــل للمتقدم ، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالتــه (٢) ، ويهتدى بدلالته ، وما أحسن قول الشاعر :

ومما شجانى أننى كنت نائما ... أعلل من فرط الكرى بالتنسم
الى أن بكت ورقاء فى غصن أيكة ... تردد مبكاها بحسن الترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى، فهيج لى البكا ... بكاها ، فقلت الفضل للمتقدم

ويعجبنى أيضا قولهم فى هذا المعنى عند المكافأة :

أنا الشــجاع الذى قد كنت فى ظمأ
وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى
فجدت بالماء ، فضـــلا منك مبتدئا
بغير قل ، فأشــفى غلة الصــادى

---

(١) القدم · السبق والتقدم ·

(٢) الفضاله كالفضلة · البقية ·

هذا جزاؤك منـــا ، لا نمن بـــه
فضلا بفضل ، وكان الفضل للبادي

(ص ٨ ، ٩) فاننا كنا فى زمن الخلفاء العباسيين أكمل سائر البلاد ، تمدنا ، ورفاهية ، وتربية زاهرة زاهية ، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم ، على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه ، فانظر الى المأمون بن هارون الرشيد ، فانه زيادة عن اعانة ميقاتية (١) دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك ، وهو الذى قد حرر ميل دائـرة فلك البروج على دائـرة الاستواء ، فوجده بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة ، وخمسا وثلاثين دقيقة ، وغير ذلك ٠

وقد أعان « جعفر المتوكل » من العباسية « أصطفان « (٢) على ترجمة الكتب اليونانية ، ككتاب « ذيسقوريدس » فى الأدوية ٠

وكذلك الملك « عبد الرحمن الناصر » صاحب الأندلس ، فانه طلب من ملك « قسطنطينية » المسمى « أرمانيوس « أن يبعث اليه رجلا يتكلم باللسان اليونانى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده ، فبعث له راهبا يسمى ٠ « نقولا » الى غير ذلك ٠

فمن هنا تفهم أن العلوم لاتنتشر فى عصر الا باعانة صاحب الدولة لأهله ، وفى الأمثال الحكمية : « الناس على دين ملوكهم »٠

وقد تشتت عز الخلفاء ، وانهدم ملكهم ، فانظر الى الأندلس ، فانها بأيدى النصارى الاسبانيول ، من نحـــو ثلاثمــــائة وخمسين ســـنة ٠

---

(١) الميقاتية : هم الذين يحددون الوقت ويبينون ساعات الليل والنهار ، لمعرفة أوقات الصلاة ٠

(٢) هو اصطفان بن « بازيل » من تلامذة حنين بن اسحق ، وأول من قام بترجمة كتاب Dioscorides فى الطب ٠

وقد قويت شوكة الافرنج ببراعتهم ، وتدبيرهم ، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب ، وتنوعهم واختراعهم فيها ، ولولا أن الاسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلا شيء ، بالنسبة لقوتهم ، وسوادهم ، وثروتهم ، وبراعتهم وغير ذلك . ومن المثل المشهورة : « ان أعقل الحكام ابصرهم بعواقب الأمور » .

ولهذا تنبه (المتولى) على بلاد مصر ـ القاهرة ـ أن يرجع اليها شبابها القديم ، ويحيى رونقها الرميم ، فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا ، ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا ، ويلتجيء اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة ، من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى ان العامة بمصر ، وبغيرها . من جهلهم يلومونه فى أنفسهم غاية اللوم ، بسبب قبوله (١) الافرنج ، وترحيبه بهم ، وانعامه عليهم ، جهلا منهم بأنه انما يفعل ذلك لانسانيتهم وعلومهم ، لا لكونهم نصارى ، فالحاجة دعت اليه ، ولله در من قال :

(ص١٠) ان المعلم والطبيب كلاهما
لم يبذلا نصحا اذا لم يكرما (٢)

فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه
واصبر لجهلك ان جفوت معلما .

ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن ، بل وقد اجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى بلوغها درجة كمال وفوقان ، فما أنفقه (الوالى) على ذلك كان فى محله

---

(١) فى المطبوعه : قبول .

(٢) الروايه المشهورة : لا ينصحان اذا هما لم يكرما .

اتفاقا . فانظر الى « الورش » والمعامل والمدارس ونحوها ، وانظر الى ترتيب أمر العساكر الجهادية من « ألايات » ومدارس حربية ، فانه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ، ولايمكن ادراك ضرورية هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج ، أو شاهد الوقائع .

وبالجملة والتفصيل ، [فان الوالى] آماله دائما متعلقة بالعمار ، ومن الحكم المعروفة « العمارة كالحياة ، والخراب كالموت، وبناء كل [انسان] على قدر همته .

وقد سارع (الوالى) فى تحسين بلاده ، فأحضر فيها ما أمكنه احضاره من علماء الافرنج ، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر الى تلك البلاد ، فان علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية . وفى الحديث « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك » قال بطليموس الثانى : « خذوا الدر من البحر ، والمسك من الفارة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن قالها » . وفى الحديث : « اطلب العلم ولو بالصين » ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون وان كان المقصود من الحديث السفر الى طلب العلم ، وبالجملة حيثما أمن الانسان على دينه ، فلا ضرر فى السفر ، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة .

ولعل هذا كله مطمح نظر (الوالى) فى هذه الارسالية وغيرها من الارساليات المتتالية المتسلسلة (١) فثمرة هذا السفر تحصل ـ ان شاء الله تعالى ـ بنشر هذه العلوم والفنون الآتية فى الباب الثانى ، وبكثرة تداولها ، وترجمة كتبها وطبعها فى مطابع ولى النعم .

فينبغى لأهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون ، والصنائع النافعة ، وليس هذا الزمان قابلا لأن يقال فيه

(١) زيادة فى الطبعة الثانية . وليست فى الطبعة الأولى .

كما « قال بهاء الدين أبو حسين العاملى » فى صرف العمر فى جمع كتب العلم وادخارها ومطالعتها ، فى شعره :

على كتب العلوم صرفت مالك … وفى تصحيحها أتعبت بالك

(ص ١١)

وأنفقت البياض مع السواد … الى ماليس ينفع فى المعاد
تظل من المساء الى الصباح … تطالعها ، وقلبك غير صاح
وتصبح مولعا من غير طائل … بتحرير المقاصد والدلائل
وتوضيح الخفا فى كل باب … وتوجيه السؤال مع الجواب
لعمرى ، قد أضلتك الهداية … ضلالا ماله أبدا نهايه
وب «المحصول»حاصلك الندامة … وحرمان الى يوم القيامه
وتذكرة « المواقف « والمراصد … تسد عليك أبواب المقاصد
فلا ينجي النجاة من الضلاله … ولا يشفى الشفاء من الجهاله
وبالارشاد لم يحصل رشاد … وبالتبيان مابان السداد
وبالايضاح أشكلت المدارك … وبالمصباح أظلمت المسالك
وبالتلويح مالاح الدليل … وبالتوضيح ما اتضح السبيل
صرفت خلاصة العمر العزيز … على تنقيح أبحاث الوجيز (١)
بهذا الأمر صرف العمر جهل … فقم واجهد فما فى الوقت مهل
ودع عنك الشروح مع الحواشى … فهن على البصائر كالغواشى(٢)

---

(١) المقاصد ، والدلائل ، والمحصول ، والمواقف ، والمراصد ، والنجاة ، والارشاد ، والتبيان ، والايضاح ، والمصباح ، والتلويح ، والتوضيح ، والوجيز أسماء لكتب شرعية ولغوية ونحوية .

(٢) الغواشى : جمع غاشية ، وهى الغطاء .

وقوله :

أيها القوم الذى فى المدرسه ... كل ما حصلتموه وسوسه
فكركم ان كان فى غير الحبيب ... ماله فى النشأة الأخرى نصيب
فاغسلوا بالراح عن لوح الفواد ... كل علم ليس ينجى فى المعاد

لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيا ، وانهمك على الأخرى ، أو من اشترى العلوم بأغلى ثمن ، فيبخس صفقتها حادث الزمن .

الباب الثانى

من المقدمة

[يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة ، والحرف والصنائع المرغوبة]

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة ، لتعرف أهميتها ، ولزومها فى أى دولة من الدول • وهذه الفنون اما واهية فى مصر ، أو مفقودة بالكليـة •

وهى قسمان : قســم عام للتلامذة ، وهو : الحســاب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم • وقســم خـاص (ص ١٢) متوزع عليهم ، وهو عدة علوم :

العلم الأول : علم تدبير الأمور الملكية ، ويتشعب عنه عدة فروع :

الحقوق الثلاثة التى يعتبرها الأفرنج ، وتسمى بالنواميس ، وهى الحقوق الطبيعيــة ، والحقـوق البشرية ، والحقوق الوضعية ، وعلم أحوال البلدان ومصالحها وما يليق بهـا ، وعلم الاقتصاد فى المصاريف وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات، والخازندارية وحفظ بيت المال •

العلم الثانى : علم تدبير العسكرية •

العلم الثالث : علم القبطانية ، والأمور البحرية •

العلم الرابع : فن معرفة المشى فى مصـالح الدول (١) ، يعنى علم السفارة ، ومنه (الايلجيـة) (٢) ، وهى رسالة البلدان • وفروعه • معرفة الألسن ، والحقوق ، والاصطلاحات •

العلم الخامس : فن المياه (٣) ، وهو صناعة القناطر ، والجسور ، والأرصفة ، والفساقى ، ونحو ذلك •

العلم السادس : الميكانيقا (٤) ، وهى آلات الهندسة ، وجر الأثقال•

العلم السابع : الهندسة الحربية •

العلم الثامن : فن الرمى بالمدافع وترتيبها ، وهى فن (الطوبجية)•

العلم التاسع : فن سبك المعادن ، لصناعة المدافع والأسلحة وغيرها •

العلم العاشر : علم الكيميا ، وصناعة الورق ، والمراد بالكيميا معرفة تحليـل الأجزاء وتركيبها ، ويدخل تحتهـا أمور كثيرة ، كصناعة البارود والسكر وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة، كما يظنه بعض الناس ، فان هذا لاتعرفه الافرنج ، ولا تعتقده أصـلا •

العلم الحادى عشر : فن الطب ، وفروعه ، فن التشريح ، والجراحة ، وتدبيرالصحة ، وفن معرفة مزاج المريض ، وفن البيطرة ، أى معالجة الخيل وغيرها •

العلم الثانى عشر : علم الفلاحة ، وفروعها ، معرفة أنواع الزروع،

---

(١) ترجمة لـ La Diplomatie

(٢) عرف رفاعة (الايلجية) بأنهم رسل البلاد ، ولعلهم الوزراء المفوضون • مأخوذة فى الفرنسية من مادة Eligibilité ومنها •

(٣) ترجمة لـ L'Hidraulique

(٤) ترجمة : Mècanique

وتدبير الخلا بالبناء اللائق به ، وغيرها ۰ ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبر للمصاريف ۰

العلم الثالث عشر : علم تاريخ الطبيعيات ، وفروعه ، الحيوانات ، ومرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ۰

العلم الرابع عشر : صناعة النقاشة ، وفروعها ، فن الطباعة ، وفن حفر الأحجار ونقشها ، ونحوها ۰

العلم الخامس عشر : فن الترجمة ، يعني ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة ، خصوصا ترجمة الكتب العلمية ، فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات أصول العلم المراد ترجمتها ، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه واليه ، والفن المترجم فيه ۰

فاذا نظرت بين الحقيقة (ص ١٣ ، ١٤) رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا ، ومن جهل شيئا فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الانسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته ، فالحمد لله الذى (أنقذنا) من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا ۰ واظن أن من له ذوق سليم ، وطبع مستقيم يقول كما أقول ، وسأذكر بعضها بالاختصار فى آخر الكتاب ان شاء الله تعالى ، وهو المستعان ۰

الباب الثالث

من المقـــدمة

[في ذكر وضـــع البــلاد الافرنجية ، ونسبتها الى غيرها من البلاد ، ومزية الأمة الفرنساوية على من عداها من الافرنج ، (وبيان وجه الحكمة في) ارســـالنا (اليها) ، دون ما عداها من ممالك الافرنج] .

فنقول : اعلم أن الجغرافيين من الافرنج قسموا الدنيـــا من الشمال الى الجنوب ، ومن المشرق الى المغرب خمسة أقسام ، وهي : بلاد أوروبا (بضم الهمزة والراء وتشديد الباء) ، وبلاد (آسيا » « بكسر السين) ، وبلاد « الافريقة » ، وبلاد « الأمريقة » وجزائر البحر المحيط المسماة « الأوقيانوسية » .

فبلاد « أوروبا » محدودة جهة الشمال بالبحـــر المنجمد ، المسمى : ببحر . الثلج الشمالي وجهة الغـــرب ببحر الظلمات ، المسمى : البحر المظلم ، والبحر الغربي ، وجهة الجنوب ببحـــر الروم . المسمى : البحر المتوسط والأبيض ، وبلاد « آسيا » . وجهة الشرق ببحر « الخزر » ، (بضم الخـــاء والزاي ، آخـــره راء) ، ويقال له : بحر الحزز ، (بحاء مهملة مفتوحة ، ثم زايين معجمتين ، أولاهما مفتوحة) ، ويسمى أيضا : بحرجرجان وبحر طبرستان ، وببلاد آســـيا .

فحينئذ بلاد أوروبا تقال على بلاد الافرنج ، وبلاد الأروام ، وبلاد قسطنطينية ، وبلاد الخزر (١) ، والبلغـــار ، والأفلاق ، والبغدان (٢) ، والسرب ، وغيرهما ٠

وهي نحو ثلاث عشرة أرضا ، أي ولاية أصلية :

أربعة منها في الشمال : وهي بلاد الانكليز ، وبلاد «دانيمرق»، (بكسر النون وفتح الميم ، وسكون الراء) ، وبلاد « أســـوج » ، (بفتح الهمزة ، وســـكون الســـين ، وكسر الواو) ، وبـلاد « الموسقو » ٠

وســـتة في الوســـط ، وهي : « بلاد الفلمنك » ، وبلاد « الفرنسيس » ، وبلاد » السويسة » و وبلاد « النيمسة » ، وبلاد « البروسية » (بضم الباء) ٠ وبلاد « جرمانية » المتعاهدة ٠

وثلاثة في الجنوب ، وهي : بلاد (ص ١٤ ، ١٥) اسبانيا مع « البورتوغال » وبلاد « ايطاليا » ، وبلاد « الدولة العلية العثمانية » في بلاد « أوروبا » ، التي هي : بلاد الأروام ، والارناؤط والبشناق، والسرب ، (بالباء أو الفاء) ، والبلغار ، والأفلاق ، والبغدان ، (بضم الباء ، وسكون الغين) ٠

فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد أوروبا وبلاد الافرنج فيه قصور ، اللهم الا أن تكون بلاد الافرنج تطلق على ما يعم بلاد الدولة العليـــة ، ولكن يناقض ذلك أن (مترجمي) الدولة العثمانية يقصرون بلاد « افرنجستان » على ما عدا بلادهم من بلاد أوروبا ٠ ويسمون بلادهم ببلاد الروم ، وان كانوا يعممون أيضا

---

(١) تقع الى الغرب والشمال لبحر قزوين ٠

(٢) الأفلاق والبغدان يكونون دولة رومانيا الحديثة ٠

فى لفظ الروم ، فيريدون به بعض الأحيان ما يعم بلاد الافرنج ، وبعض البلاد الداخلية في حكمهم من بلاد « آسيا » ٠

وبلاد « آسيا » محدودة أيضا جهة الشمال بالبحر المنجمد الشمالى ، وجهة الغرب ببلاد « أوروبا » و « الأفريقية » ، وجهة الجنوب ببحر الهند ، وبحر الصين ، وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط ، وببحر بهرنغ (١) ٠ (بكسر الباء ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، وسكون النون ، وبالغين أو الكاف) ٠

وهى تنقسم أيضا الى عشر أراض أصلية :

واحدة جهة الشمال ، وهى بلاد « سنبير » ٠

وسبعة فى الوسط ، وهي : بلاد الدولة العلية العثمانية ، التى هى « الشام » ، و « أرمينية » و « كردستان » و « بغداد » ، و « البصرة » ، و « قبرص » ، وغيرها ، ثم بلاد العجم ، وبلاد « بلوجستان » ، وبلاد « قابولستان » ، و « أفغهانستان » وبلاد « التتار الأكبر » ، وبلاد الصين ، وبلاد « يابونيا » (٢) ٠

واثنان فى الجنوب ، وهى : بلاد العرب ، وبلاد الهند ، فبلاد الحجاز ، وبلاد الوهابية تحت حكم الدولة العلية ٠ وبلاد اليمن تحت حمايتها ٠ وبلاد عمان مستقلة ، وكلها أقاليم جزيرة العرب ٠

فهذه هى ولايات آسيا ٠

ثم بلاد « الافريقية » ، وهى محددة جهة الشمال ببحر الروم ، وجهة الغرب بالبحر الأطلنتيقى ، المسمى : بحر الظلمات ويسمى ٠

---

(١) يفصل بين شبه جزيرة الاسكا وقاره آسيا ٠

(٢) هى اليابان ٠

بحر المغرب ، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبي ، وجهة الشرق ببحر الهند ، « وببغاز باب المندب » وببحر « القازم » ، المسمى : البحر الأحمر ، وببلاد العرب ·

ويمكن تقسيم « الافريقية » الى ثمان أراض أصلية ·

اثنتان في الشمال ، وهي : بلاد المغاربة ، وبلاد مصر ·

وأربعة في الوسط ، وهي : « السينيغبينيا » (١) ، وبلاد « الزنج » ، وبلاد « النوبة » وبلاد « الحبشة » ·

واثنتان في الجنوب وهما : بلاد « غينا » وبلاد « كفرية » (٢)·

فهذا ما يسمى الآن عند الافرنج : بلاد افريقية ، وان كانت « افريقية » في الأصل بلدة (ص ١٦) معلومة جهة « تونس » وما حواليها ، ثم أضيف الى بلاد أوروبا ما قاربها من الجزائر ، وكذلك لبلاد « آسيا » و « افريقية » وهذه الأقسام الثلاثة يعنى · « أوروبا » و « آسيا » و « افريقية » تسمى : الدنيا القديمة ، أو الأرض القديمة ، يعنى المعروفة للقدماء ·

وأما بلاد « أمريكة » أو « أمريقة » ، (بالكاف أو القاف) فتسمى : الدنيا الجديدة ، وتسمى أيضا : الهند الغربي ، وتسمى في بعض الكتب العربية (عجائب المخلوقات) ·

وهي انما عرفت للافرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الأندلس ، واخراج العرب منها ، فان هذا الوقت كان مبدأ للسياحة ، وجوب البحر المحيط ، واستكشاف البلاد باعانة لدول لأرباب الأسفار والملاحة ·

---

(١) فى المطبوعة : السينغنيا ·

(٢) عرفها رفاعة فى مقدمة كتاب قلائد المفاخر ص ٧٥ ، فقال : كفرية (بضم الكاف وفتحها) ··· ولاية فى جنوب افريقية ، جهة اقليم زنجبار ،

وأما الآن فقد كانت السياحة تكون عند الافرنج فنا من الفنون ، فليس كل أحد يحسنها ، ولا كل دولة تتقنها ، وذلك أنه لما كثرت الآلات الفلكية والطبيعية ، سهلت الاستكشافات البرية والبحرية ، وتداولت الأسفار ، واستكشفت الأماكن والأقطار ، وضم الى ما يعرف من قديم الزمان ، هذه الدنيا الجديدة التى انتظمت فى سلك معرفة أولى العرفان ·

ثم زاد الحال باختراع سفن النار ، ومراكب البخار ، فتقاربت الأقطار الشاسعة ، وتزاورت أهالى الدول وصارت المعاملات والمخالطات بينها متتابعة ·

ومما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها ، وناب عن أدوات الملاحة قبل اختراعها · الأنوار المحمدية ، والغيرة الاسلامية ، بل والمعارف الوافرة فى العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، فى زمن الخلفاء العباسية ، ففتحوا بلاد مصر ، والسودان ، والمغرب ، والعجم ، وبلاد قابول ، وبخارى ، والهند ، والسند ، وجزائر سيلان ، وسومطرة ، وبلاد التبت ، والصين ، وعدة ولايات ببلاد أوروبا ، مثل ممالك الأندلس ، وصقلية ، وبلاد الروم ، وغير ذلك ·

وتقدمت عندهم العلوم الجغرافية ، واشتهر من علماء الجغرافية كثيرون كالمسعودى (١) ، وابن حوقل (٢) ، والشريف

---

(١) جغرافى فقيه ، أديب : توفى بدمشق ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ·

(٢) رحالة جغرافى له كتاب « المسالك والممالك » (توفى نحو سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م) ·

الادريسى (١) ، وابن الوردى (٢) ، والسلطان عماد الدين أبى الفدا صاحب حماة (٣) ٠

ثم لما خمدت عندهم أنوار هذه المعـارف ، وأهملوها ، ازدراء لها ، أو لسبب آخر ، قلت سياحاتهم ، وقام مقامهم طوائف الافرنج، وبرعوا فى ذلك ، واستفادت الدولة والرعية الفوائد الجسيمة ، بالأمور السياسية والتجارية (ص ١٧) ، وصيروا الأمم أشـباه البهائم الى ملة النصرانية ، وكان الاسلام أولى بتلك المزية ، ولقد تصدى (الجاكم) ، لاحياء هذه المعارف ، التليد منها والطارف ، حتى لاحت تباشير بدو (ر) (٤) العلوم ، وتلاشـــت عن المعارف غياهب الأحلاك والغيوم ٠ (شعر) :

واذا رأيت من الهـــلال نمـوه   أيقنت أن سيصير بـدرا كاملا

ثم ان بلاد « الأمريقة » تتصل بستة بحور ، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المنجمد وبحـر بافين (٥) ، ومن جهـة الشرق ببحر المغرب ، وببحر جزائر » الأنتيلة » (٦) ، وبالبحـر المحيط الأكبر ، المسمى « أقيانوس » ، « وبحـر بهرنغ » جهـــة الغـــرب ٠

---

(١) مؤرخ ومن أكابر العلماء بالجغرافيا ، ورحالة ، له كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (٤٩٣ ـ ٥٦٥ هـ) (١١٠٠ ـ ١١٦٥ م) ٠

(٢) توفى سنة ٧٤٩ هـ ٠

(٣) أمير مؤرخ جغرافى له تقويم البلدان (٦٧٢ ـ ٧٣٢ هـ) (١٢٧٣ ـ ١٣٣٢ م) ٠

(٤) فى الأصل « بدو » ٠

(٥) تفصل بين جرينلاند وأمريكا الشمالية ٠

(٦) جزائر كثيرة متناثرة شرق أمريكا الوسطى ٠

وهى قسمان : الأمريقة الشمالية ، والأمريقة الجنوبية ٠

فأمريقة الشمالية ست أراض أصلية ، وهى : الأمريقــة الرسية (١) ٠ أو المحكومة بالموسقو ، وبلاد « أغرونلنده » (٢) ، وبلاد « بريطانيـــة الجديدة » (٣) ، أو بلاد الانكليز الجديدة ، وبلاد « الايتازونيا » ، وهى الأقاليم المجتمعة (٤) ، وبلاد «مكسيك» ٠ وبلاد « غواتيمالا » ٠

والأمريقة الجنوبية تسع أراض ، وهى : بلاد « كلنبيا » ، وبلاد « ابريزيلة » (٥) ، وبلاد « برو » ، وبلاد « بولوية » (٦) ، وهى : « برو العليا ، وبلاد « براغية » (٧) ، وبلاد « بلاطة » (٨) ، وبلاد « شلى » ، (بكسر الشين ، وتشديد اللام المكسورة » ، وبلاد « ابتاغونيا » (بفتح الباء والتاء ، وضم الغين ، وكسر النون) ٠

وأما جزائر البحر المحيط فانها غربى بلاد الأمريقة ، وعلى الجنوب الشرقى من بلاد « آسيا » ، وهى محددة « من ســـائر جهاتها بالبحر المحيط وهى ، ثلاثة أجزاء أصلية « النوتازية » (٩) (بضم النون المشددة ، وكسر الزاى) ٠

« والأستورالية » ، (بضـــم الهمزة ، وســـكون السين ،

---

(١) هى شبه جزيرة « آلاسكا » ٠

(٢) هى ما نسمى اليوم : « جرين لاند » Greenland

(٣) Nouvelle-Bretagne - New Engand.

(٤) نسميها اليوم بالولايات المتحدة Etas-Unis

(٥) البرازيل Brésil

(٦) بوليفيا Bolivie

(٧) براجواى Paraguay

(٨) دلتا نهر بلاتا ٠ وهى جزء من البرازيل ٠

(٩) هى اندونسيا Indonerie

وضم التاء ، وكسر اللام) « والبولينيزية » ، (بضم الباء ، وكسر اللام ، والنون والزاى) ٠

« ثم بلاد « أوروبا » فيها أربعة بنادر أصليـــة مشهـورة بالتجارة : « اسلامبول » تخت الدولة العليـــة ، « ولوندرة » ، (بضم اللام ، وسكون النون ، وفتح الدال) تخت بلاد الانكيز ، « وباريس » تخت بلاد الفرنسيس ، « ونابلى » ، (بضم الباء) ببلاد « ايطاليا » ٠

والبنادر الأصلية ببلاد آسيا أربعة أيضا : « بكين » ، (بكسر الباء والكاف) قاعدة بلاد الصين ، « وقلقوطة » ، (بفتح القاف واللام ، وضم القاف) ، ويقال « كلكتة » ، (بكافين) قاعدة بلاد الهند التى تحت حكم الانكليز ، « وصورة » ، ببلاد الهند أيضا ، ويقال : هى التى كانت تسمى « المنصورة » ، « ومياقو » ، (ص ١٨) (بكسر الميم ، وضم القاف) فى بلاد جزيرة « يابونيا » ٠

والبنادر الأصلية ببلاد « الافريقية » أربعة « القاهرة » قاعدة مصر ، « وسنار » قاعدة حاكم بلاد النوبة ، والجزائر ، وتونس ، ببلاد المغاربة ٠

والبنادر الأصلية ببلاد « أمريقة الشمالية » هى : «مكسيكو»، ببلاد « مكسيك » « ونويرق » (١) فى بلاد « الايتازونيـــا » ، « وفيلادلفيا » ، (بكسر الفاء والدال ، وسكون اللام ، وكسر الفاء »، ومدينة « وسهنغتون » (٢) (بسكون السين ، وكسر الهاء ، ثم نون ساكنة بعدها غين مكسورة) ٠

---

(١) هى نيويورك New York

(٢) هى واشنطون Washington

وأربعة فى « أمريقة الجنوبيـــة » ، وهى : « ريوجانير » ، (بكسر الراء ، وضم اليـاء وكسر النـون) فى بلاد « ابريزيلة » « وبنوسيرس » ، (بكسر الباء والسين والراء) فى بلاد « بلاطة » ، « وليمة » ، (بكسر اللام) فى بلاد « برو » ، « وقيطو » ، (بكسر القاف) فى بلاد « غرناطة الجديدة » ٠

وفى بلاد البحر المحيط بندران شهيران ، وهما : مدينـــة « بتاويا » ، بندر جزيرة « جاوة » ، ومدينة « مانيلة » ، الواقعة فى جزيرة « مانيلة » احدى جزائر « فيليبينة » ، فهذه المدينة هى قاعدة جميع هذه الجزائر ٠

ثم ان بلاد « أوروبا » أغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هى بلاد الاسلام بهذه القطعة ٠

وأما بلاد « آسيا » فانها منبع بلاد الاسلام ، بل وسـائر الأديان ٠ وهى أوطان الأنبياء والمرسلين ، وبها نزلت سائر الكتب السماوية ، وهى تتضمن أشرف الأماكن والأرض المباركة ، والمساجد التى لاتشد الرحال الا اليها ، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الأولين والآخرين ، والصحابة ٠ وهى منشأ الأئمة الأربعة (رضى الله تعالى عنهم) لأن منشأ الامام الشافعى (رضى الله عنه) غزة ، ومنشـأ الامام مالك (رضى الله عنه) المدينة المشرفة ، ومنشأ الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان الكوفة ، ومنشأة الامام أحمد بن حنبل بغداد ، التى كانت (كما قيل) فى أيام الخلفاء ، بالنسبة للبلاد ، كالأستاذ فى العباد ٠ وكلها من بلاد « آسيا » ٠

وبها ، يعنى ببلاد « آسيا » العرب ، وهم أفضل القبائل على الاطلاق . ولسانهم أفصح الألسن باتفاق ، وفيهم بنوهاشم ، الذين هم ملح الأرض ، وزبدة المجد ، ودرع الشرف ٠

ومما يدل على فضلها أن بها الاماكن المفضلة ، كالقبلة ، التى يجب على كل انسان أن يتوجه اليها خمس مرات فى اليوم والليلة . والمدينتين اللتين نزل بهما القرآن العظيم ، ففضائلهـــا لاتحصى ، وآثار أهلها لاتستقصى ، قال بعض أهلها :

عطفة ، يا جيرة « العلم » (١) يا أهيــــل الجود والكرم
نحن جيران لذا « الحــــرم » حــرم الاحســـان .والحسن

(ص ١٩ ، ٢٠)

نحن أقوام به ســــكنوا وبه من خوفهــم أمنــوا
وبآيات الكتـــاب عنـــوا فاتئد فينـــا أخـــا الوهن
نعرف » البطحا » ، وتعرفنـــا و « الصفا » و « البيت » يألفنا
ولنا « المعلى » ، « وخيف » منى فاعلمن هذا ، وكــن ، وكــن
ولنـــا خـــير الأنــام أب و « على المرتضى » حســـب
والى « السبطين » ننتســـب نســـبا ما فيه من دخن (٢)

ومع أن الاسلام قد تولد فيها ، وانتشر منها الى غيرها ، ففيها جزء عظيم باق على الاتبـــاع أو الكفر ، كبلاد الصين ، وبعض بلاد الهند ، وجزء سالك فى اسلامه طريق الضلال ، كروافض العجم .

وأما بلاد « افريقية » فانها تشتمل على أعظم البلاد ، كبلاد مصر التى هى من أعظم البلاد وأعمرها وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء ، وكبلاد المغرب التى أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل ، وان شاء الله يمتد بها الاسلام .

وأما « أمريقة » فهى بلاد كفر ، وذلك أنها كانت عامــرة فى الأصل بهمل عبدة الأصــنام ، فتغلب عليهـــا الافرنج ، لما قويت

---

(١) العلم . الجبل
(٢) الدخن : الفساد .

شوكتهم في الفنون الحربية ، ونقلوا اليها جماعة من بلادهم ، وأرسلو اليها قسيسين ، فتنصر كثير من أهلها ، فالآن بلاد « أمريقة » غالبها نصارى الا الهمل ، فهم وثنيون ، ولم يوجد بها دين الاسلام ، وسببه قوة الافرنج فى علم ركوب البحر ، ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ، ورغبتهم فى المعاملات والتجارات ، وحبهم للسفر . قال الشاعر :

ان العلا حدثتني، وهى صادقة فيما تحدث: أن العز فى النقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال آخر :

قلقل ركابك للفلا ودع الغوانى والقصور
فمحالفو أوطانهم أمثال سكان القبور
لولا التغرب ما ارتقت درر البحور الى النحور

(ص ٢٠ ، ٢١) وقال الحريرى :

لجوب البلاد مع المتربة أحب الى من المرتبة

وقال غيره :

قم واغترب في البلاد مجتهدا فمن ثوى فى بلاده هانا
كبيدق لايزال محتقرا حتى اذا سار فرزانا (١)

وقال :

أنفق من الصبر الجميل ، فانه لم يخش فقرا منفق من صبره
والمرء ليس ببالغ فى أرضه كالصقر ليس بصائد فى وكره

---

(١) البيدق : الجندى الراجل ، وهو اسم لقطعة فى الشطرنج ، والفرزان : الوزير ، قطعة فى الشطرنج أيضا ، يشير الشاعر الى أن البيدق لا يزال يتحرك فى مكانه من قطعة الشطرنج ، الى أن يحل فى مكان الوزير بعد أن يفقده صاحبه ، فيكون مطلق الحرية فى التحرك كما يشاء، يمينا ويسارا والى الأمام ، والى الخلف .

ومن المعلوم أن الدر والمسك لايشرفان مالم يفارقا وطنهما ومعدنهما . وكل هذا لاينافى أن حب الوطن من شعب الايمان ، لأن المقصود السياحة ، والأخذ فى أسباب طلب الرزق ، وهذا لايمنع من تعلق الانسان بوطنه ومسقط رأسه ، فان هذا أمر جبلى ، قال الشاعر :

يابعيد الدار عن وطنه ... مفردا يبكى على شجنه
كلما جد الرحيل به ... زادت الأسقام فى بدنه

وقال غيره :

ولقد زاد الفؤاد شجى ... طائر يبكى على فننه
شفه ما شفنى ، فبكى ... كلنا يبكى على سكنه

ولا ينافى أيضا هذا الأمر مادة التوكل والاعتماد على المولى ، كما يفهم من كلام الشاعر فى قوله :

لقد علمت ، وما الاسراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى اليه ، فيعييني تطلبه
ولو قعدت أتانى ليس يعييني (١)

وقول الآخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله ... واحذر ، ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر الا وهو منتقص ... وما تكدر الا فى الزيادات

---

(١) فى المطبوعة « لايعييني » .

فان هذا معناه التسلية لمن لا يحب الأســـفار ، أو النهى عن السفر للطمع •

وأما بلاد (ص ٢٢) جزائر البحر المحيط فانها قد فتح كثير منها بالاسلام ، كجزيرة « جاوة » ، فان أهلهـــا مسلمون • وبالجملة فبلاد « النوتازية » أغلبها اسـلام ، وندر وجـــود دين النصرانية فيها •

ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن أقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها على بعض ، يعنى تفضيل جزء بتمامه على الآخــر بتمامه ، بحسب مزية الاسلام وتعلقاته ، فحينئذ تكون « آسيا » أفضل الجميع ، ثم تليها « افريقية » لعمارها بالاسلام والأولياء والصلحاء ، خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة ، ثم تليها بلاد « أوروبا » لقوة الاسلام ، ووجود الامام الأعظـــم • امام الحرمين الشريفين ، سلطان الاسلام فيها ، ثم بـــلاد الجزائر البحـــرية ، لعمارها بالاسلام أيضا ، مع عدم تبحرها فى العلوم ، كمـــا هـــو الظاهر ، فأدنى الأقسام بلاد « أمريكة » ، حيث لا وجود للاسلام بها أبدا • هذا ما يظهر لى ، والله أعلم بالصواب •

وهذا كله بالنظر للاسلام ، والأمور الشرعيـــة ، والشرف الذاتى ، فان المراد بالشرف ما يعم الشرعى وغيره ، فلا يقـــال : ان أغلب ذلك من باب المزية ، وهى وحدها لا تستدعى أفضلية •

ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكميـــة وأعلاها فى التبحـــر فى ذلك ، بلاد الانكليز ، والفرنسيس ، والنمسا ، فان حكماءها فاقوا الحكمـــاء المتقدمين ، كأرسطاطاليس ، وأفلاطون ، وبقراط ، وأمثالهـــم • وأتقنـوا الرياضيات ، والطبيعيات ، والالهيات ، وما وراء الطبيعيات أشـــد

اتقان ، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين ، لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى ، وبقاء الأرواح ، والثواب والعقاب ٠

فأعظم مدائن الافرنج مدينـــــة « لوندرة » ، وهى كرسى الانكليز ، ثم « باريز » ، وهى قاعدة ملك فرنسا ، و « باريز » تفضل على « لوندرة » بصحة هوائهـــا ، كما قيل ، وطبيعة القطر والأهل ، وبقلة الغلاء التام ٠

واذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيهـــا وحظهم وانبساطهم مع أهلها ، فالغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء ، ومراعاة خواطرهم ، ولو اختلف الدين ٠ وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة انما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا ينتحل دينه ، ولا غيرة له عليـــه ، بـــل هو من الفـــرق المحسنة والمقبحة بالعقـــل ، أو فرقة من الاباحيين الذين يقولون : ان كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، فاذا ذكرت له دين الاسلام فى مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها ، من حيث (ص ٢٣) انها كلها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، واذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال : انه لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتـــاب ، لخروجه عن الأمور الطبيعية ٠

وبالجملة ففى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان ، فلا يعارض مسلم فى بنائه مسجدا ، ولا يهودى فى بنائه بيعة ، الى آخره ، كما سيأتى فى ذكره سياستها ، ولعل هذا كله هو علة وسبب ارسال البعوث فيها هذه المرة الأولى أبلغ من أربعين نفسا ، لتعلم هذه العلوم المفقودة ٠ بل سائر النصارى تبعث أيضا اليها ، فيأتى اليها من بلاد « أمريكة » وغيرها ، من الممالك البعيدة ٠ وقد

بعث أيضا عدة طلاب للعلوم ببلاد الانكليز ، لكنهم ليسوا عديدين ، وكذلك ببلاد النمسا · وبالجملة فسائر الأمم تطلب العز ، وتسعى اليه ، كما قال الشريف الرضى : « أطلب العز ، فما العز بغال » ·

ولا أعز من العلوم والفنون تطلبها الولاة والحكام ، فانهم كلما كانوا أجل خطرا ، وجب أن يكونوا أدق نظرا ·

الباب الرابع

[فى ذكر رؤساء هذه السفرة]

قد بعث الوالى فى السفر الى بلاد فرنسا ثلاثة رؤســـاء من اكابر ديوانه ، وجعلهم رباط نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب :

فأولهم : صـــاحب الرأى التام ، والمعرفة والأحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم . حضرة عبدى أفندى المهردار .

والثانى : صاحب الرأى السديد ، والطالع السعيد ، حضرة مصطفى مختار أفندى الدويدار .

والثالث : الحاوى بين العلم والعمل ، واليراع والأسل : حضرة الحاج حسن أفندى الاسكندرانى ، بلغه الله فى الدارين الأمانى . (آمين) .

ثم ان حضرة الأفندية الثلاثة كانوا يتعلمون أيضا كالباقى ، فحضرة الأفندى المهردار سابقا اشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية ؛ وحضرة الأفندى الدويدار سابقا (يشتغل) (١) بعلم تدبير الأمور

(١) زيادة ليست فى المطبوعة .

العسكرية · وحضرة الحاج حسن أفندى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية ·

وكان لسائر الثلاثة اجتهاد زائد ، وتحصيل بالغ ، مع ان الأمرية فى الغالب تأنف ذلك · وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة (ص ٢٤ ، ٢٥) فكانت نوبة الواحد يوما ، والآخر يوما آخر ، وهكذا ، فآل الأمر الى أن صارت شهرا شهرا ، ثم صار الأفندى المهردار وحده ·

ثم ان حضرة الأفندية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب « مسيو جومار » الذى (عين) ناظرا على الدروس · وهو أحد علماء « الأنستتوت » (١) ، (بفتح الهمزة ، وسكون النون ، وكسر السين) أى مشورة (٢) العلماء وأكابرهم ، والذى يتراءى فى طبعه ويشاهد منه دائما أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها ، بل وفى سائر بلاد « الافريقية » ، كما يفهم ذلك من حاله ، ومما قاله فى طالعة « رزنامته » (٣) التى ألفها سنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة : ، وشهرة معارف « مسيو جومار » وحسن تدبيره يوقع فى نفس الانسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف ، لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة ، ولا عجب ، فبالأقلام تساس الأقاليم · وهمته فى مصالح العلوم سريعة ، كثيرة التأليف والاشتغال ·

والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الافرنج ، فان مثل

---

(١) كلمة فرنسية L'Institut

(٢) يريد بمشورة العلماء : مجلسهم ·

(٣) الرزنامة : كلمة تركية بمعنى تقويم ·

الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد ٠ اذا ترك ارتكبه الصدأ ٠ وجنـــاب « مسيو جومار » يشتغل بالعلوم آناء الليل ، وأطراف النهار ، وسيأتى ذكره عدة مرات ٠ وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التى وصلت بيدى ، ان شاء الله تعالى ٠

وهنا انتهت المقدمة ٠

المقصد

[في مدة السفر « من مصر الى باريس » ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الاقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون والعدل العجيب ، والانصاف الغريب ، الذى يحق أن يكون من باب أولى في ديار الاسلام ، وبلاد شريعة النبى (صلى الله عليه وسلم)] ·

وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات ، تشتمل على عدة فصول :

المقالة الأولى : فيما كان من الخروج من مصر الى دخول مدينة « مرسيليا » التى هى فرضة من فرضات الفرنسيس ، وفيها عدة فصول ·

المقالة الثانية : فيما كان من دخول « مرسيليا » الى دخول مدينة « باريس » (ص ٢٥) وفيها فصلان ·

المقالة الثالثة : فى دخول « باريس » ، وذكر جميع ما شاهدناه، وما بلغنا خبره من أحوال « باريس » ·

وهذه المقالة : هى الغرض الأصلى من وضعنا هذه الرحلة ، فلذلك أطنبنا فيها غاية الاطناب ، وان كان جميع هذا لايفى بحق هذه المدينة ، بل هو تقريبى ، بالنظر لما اشتملت عليه ، وان استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة · قال بعضهم :

من لم يـر الروم ، ولا أهلها ماعرف الدنيا ولا الناسا

فمن باب أولى بلاد « افرنجستان » ·

المقالة الرابعة : فى ذكر نبذ من العلوم والفنون المذكورة فى الباب الثانى من المقدمة ·

المقالة الأولى

الفصل الأول

[فى الخروج من مصر ، الى دخول ثغر اسكندرية]

كان خروجنا من مصر يوم الجمعة ، الذى هو ثامن يوم من شعبان ، سنة احدى وأربعين ومائتين بعد الألف ، من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع ، وأن تسليم العودة سيقوم مقام الوداع ٠

فركبنا زوارق صغيرة ، وتوجهنا الى اسكندرية ، وأقمنا على ظهر النيل المبارك أربعة أيام ، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التى رسونا عليها ٠

وكان دخولنا الاسكندرية يوم الأربعاء (ثالث عشر يوما) (١) من شهر شعبان ، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما ، فى (سراية) الوالى بهـا ٠

وكان خروجنا الى البلد فى هذه المدة (٢) قليلا ، فلم يسهل لى ذكر شىء فى شأنها ، غير أنه ظهر لى أنها قريبة الميل فى وضعها

(١) الصواب : الثالث عشر ٠

(٢) فى المطبوعة : المدينة ٠

وحالها الى بلاد الافرنج • وان كنت وقتئذ لم أر شـــيئا من بلاد الافرنج أصلا ، وانما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر ، ولكثرة الافرنج بهـــا ، ولكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شيء من اللغة الطليانية ونحو ذلك ، وتحقق ذلك عندى بعد وصولى الى « مرسيليا » فان اسكندرية (عينة) « مرسيليا » وأنموذجها ، ولما ذهبت اليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوروبا •

الفصل الثانى

[فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة ، لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته]

فنقول : قال في القاموس : ان « اسكندرية » منسوبة الى « اسكندر » ابن الفيلسوف (صوابه فيليبش) ، وهو الذى قتل « دارا » ، وملك البلاد ٠

والاسكندرية ستة عشر بلدا منسوبة اليه ، منها بلدة ببلاد الهند ، وبلدة بأرض بابل ، وبلدة بشاطىء النهر الأعظم ، وبلدة بصغد سمرقند ، وبلدة بمرو ، واسم لمدينة بلخ ، والثغر الأعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماة وحلب ، وقرية على دجلة قرب واسط ، منها الأديب أحمد بن المختار بين مبشر ، وقرية بين مكة والمدينة وبلدة فى مجارى الأنهار بالهند ، وخمس مدن أخرى ٠

ومرو : بلدة من خراسان ببلاد الفرس ، والنسبة اليها مروى ومروزى ٠ وانظر ما مراده بالنهر الأعظم ؟ ثم رأيت فى كتاب تقويم البلدان لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن ناصر سلطان حماة أن بالأندلس نهرا ، يسمى بالنهر الأعظم ، وهو نهر « اشبيلية » ونص عباراته ٠ ومنها نهر « اشبيلية » من بلاد الأندلس ، ويسمى عند أهل الأندلس النهر الأعظم ٠ انتهى ٠

ولعله انما سمي عندهم بالنهر الأعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر ، كما نبه على ذلك أبو الفدا في قوله : يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الأرحا لاتزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر ، صاعدة مع المد . وقال بعضهم في المد والجزر :

خليلي ، بادربي الى النهر بكرة   وقف منه حيث المد يثني عنانه
ولا تنجز الأرحا ، فان وراءها   يبابا ، وعيني لاتريد عيانه

فعلى هذا تكون « اسكندرية » اسم بلدة بالأندلس . ولعل « اسكندر » حين اجتيازه بجزيرة الأندلس بنى بها بلدة .

وذكر صاحب كتاب « نشق الأزهار ، في عجائب الأقطار » أن الأسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الأندلس ، وفتح بها (بغاز) جبل الطارق ، المسمى بحر الزقاق ، وأن محل هذا البغاز كان أرضا بين « طنجة » وبلاد الأندلس . ولم يذكر في هذا الموضع أن « اسكندر » ابنى بلدة بهذه الجزيرة ، لكن هذا لايدل على عدم وجود بلدة بها .

وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان ، كل منهما يسمى (ص ٢٧) الاسكندر : أحدهما « اسكندر ذو القرنين » والآخر . هو قاتل « دارا » .

وقال في القاموس في موضع آخر : « ذو القرنين » اسكندر الرومي ، لأنه لما دعاهم الى الله تعالى ضربوه على قرنه ، فأحياه الله تعالى ، ثم دعاهم ، فضربوه على قرنه الآخر ، فمات ، ثم أحياه الله . أو لأنه بلغ قطري الأرض ، أو لضفيرتين له . انتهى . فظاهر كلامه أن اسكندر ذا القرنين هو نفس اسكندر الرومي .

والذي عليه علماء الشرق أن ذا القرنين المذكور في الآية الشريفة هو غير اسكندر اليوناني ، فان الأول أقدم من الثاني ،

وهو الذى قيل بنبوته ، وانه بنى سد « يأجوج ومأجوج » ، وانه بحث عن ماء الحياة بلا طائل ، وفاز به الخضر (عليه السلام) فلذلك كان حيا الى الآن • وأما الثانى فانه يسمى « اسكندر الرومى » أو اليونانى ، يعنى الاغريقى ، لأن قدماء الاغارقة تسمى : اليونان ، والمتأخرون يشتهرون باسم الأروام •

وأما الافرنج فلا يقولون الا بوجود « اسكندر الأكبر » بن « فيليبش » أو ابن « فيلبوش » المقدونى (١) ، ويجعلونه عين ما يعبر عنه فى التواريخ العربية باسم « اسكندر ذى القرنين » ، وينسبون اليه سائر ما يحكى عنه من العجائب ، كسد « يأجوج ومأجوج » ونحو ذلك • غير أنهم لايصدقون بمالا يوافق العادة (٢) •

وعلى كل حال ، فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الافرنج على أن « اسكندرية » تنسب الى اسكندر الرومى ، وهو ابن « فيلبش » •

وأنا أقول : الظاهر أن ذا القرنين هو الذى يعبر عنه عند اليونان « بهرقليوس » أو « هرقول » • يدل على ذلك تسمية بوغاز جبل طارق « بوغاز هرقليوس » ، مع عبارة كتاب « نشق الأزهار » • وكذلك ما ذكر فى خرافات اليونان ، عند الكلام على عمودى « هرقول » ، من أنه ادخل « أوقيانوس » (البحر المحيط) فى الجزء الذى يفصل « أوروبا » من « افريقة » ، حين فتح « بغاز قادس » المسمى الآن « جبل طارق » بين جبلين كانا قبل ذلك متصلين ببعضهما • أحدهما يسمى : « قلبة » فى جهة اسبانيا ، والآخر يسمى « بيلا » فى جهة « أفريقة » ، وصارا بعد فتح البوغاز بينهما كأنهما عمودان ، وكتب عليهما « هرقول » ما معناه « ليس خلف ذلك شىء » •

---

(١) فى المطبوعة « المقدوانى » •

(٢) فى المطبوعة « للعادة » : •

ومما يدل على ذلك أيضا : ما ذكره اليونان فى خرافاتهم ، من أن هرقول من فحول الرجال الذين يعبرون عنهـم بأنصـاف الآلهة ، ويعتقدون أنهم متولدون بين الباقي والفاني ، أي بين اله وبشر ، فان « هرقول » (ص ٢٦ ، ٢٨) (على زعمهم) متولد من « جوبتير » أي « المشتري » و « اللمينة » زوجه أنفتريون » ملك « طيوه » حيث تشكل بشـكل هذا الملك ، وواقعهـا ، فحملت به منـه .

وذلك قريب مما ذكره « الدميري » في كتابه : « حياة الحيوان » نقلا عن « الجاحظ » حيث قال ما ملخصه : ان عمرو بن يربوع كان متولدا بين السعلاة والانسان .

قا ل: وذكروا أن « جرهما » كان من نتاج الملائكة والآدميين، فكان اذا عصى الملك ربه في السماء أهبط الى الارض في صـورة رجل ، كما صنع بهـاروت وماروت ، وأن من هذا القبيل كانت « بلقيس » ملكة « سـبأ » ، وكذلك كان ذو القـرنين ، وكانت أمه آدمية ، وأبوه من الملائكة ، ولذلك لما سـمع عمر بن الخطاب (رضى الله تعـالى عنه) رجلا ينادى رجلا : ياذا القرنين ، قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء ، فارتفعتم الى أسماء الملائكة ؟ .

وقال : وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس، فقال تعالى : « وشاركهم فى الأموال والأولاد » ، وذلك أن الجنيات انما تعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق ، فى طلب السفاد ، وكذلك رجال الجن لنساء الانس ، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء . وقال تعالى : « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » ، ولو كان الجان لايفتض الآدميـات ، ولم يكن : ذلك فى تركيبـه لما قال الله هذا القول . انتهى .

غاية ما هناك أن العلوية فى اعتقاد العرب آلهـة فى اعتقاد اليونان . وأظن أن هذه المسألة لو عرضـت كالجارى على أرباب مدرسة فرنسا العظمى المسماة « أكدمة » لأجابت بعد النظر فيها بالصحة ، وأيدت القول بذلك .

وقد سلف فى عبـارة القاموس أسماء البـلاد التى تسمى « باسكندرية » ، وليس مما ينسب الى « اسكندر » الرومى الشهير بلدة « الأرناؤط » المسماة « اسكندرياسى » ، يعنى « اسكندرية » ؛ بل هى منسوبة الى « اسكندربيك » .

وقال بعضهم : مدينة « اسكندرية » ببرمصر كانت تسـمى قبل بناء الاسكندر لها بنحو ثلاثمائة سنة واثنتين قبل ظهور عيسى (عليه السلام) « قيسون » (بفتح القاف وسكون الياء التحتية) .

وقال الافرنج : انها كانت تسمى « نو » ، (بضم النون) ، وقبل فتحها بالاسلام كانت تارة تحت حكم الرومان ، وتارة تحت حكم الأروام أو اليونان .

وفتحها عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب ، ولما فتحهـا كتب الى عمر (رضى الله عنه) أنه وجد بها أربعـة آلاف قصر ، وأربعة (ص ٢٦) آلام حمام ، وأربعين ألف يهودى تدفع الجزية ، وأبعمائة ميدان ، واثنى عشر ألف بقال ، وخضرى ، وفاكهانى . ولعل هذا من مبالغات المؤرخين ، كما بالغوا فى غيرها من البلاد ، كمدينة بغداد .

ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص (رضى الله تعـالى عنه) ، فكانت عدة ما فيهـا مـن الكتب سبعمائة ألف مجلد .

وقد كان أهل هذه المدينة فى سالف الزمان ثلثمائة ألف نفس تقريبا ، وأهلها الآن أقل من ذلك بكثير •

وقد تغلب عليها الفرنسيس ثم أخرجهم الانكليز منهما ، ورجعت الى يد الاسلام •

وهى الآن يلوح عليها أنوار العمارات ، وبها بهجة التجارة ، كما أنها كانت فى الزمن السابق مركزا للتجارات ، وصارت فى هذا الوقت دار اقامة الحاكم فى أغلب الأوقات • وهى أشبه وضعا وعمارة بفرضات الافرنج •

وهى على الشمال الغربى من القاهرة بنحو خمسين فرسخا ، موضوعة فى احدى وثلاثين درجة ، وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء ، وسيأتى ذكر المسافة بينها وبين باريس •

الفصل الثالث

[فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الاسكندرية] (١)

اعلم أن هذا البحر يسمى فى كتب الجغرافيا العربية « بحر الروم » لأنه يتصل احدى جهاته ببلاد الروم ، ويسمى أيضا فيها « بحر الشام » لمجاورته أيضا لبلاد الشام ، ويسمى أيضا عند الافرنج « البحر المتوسط » أو الجوانى • وانما سمى بذلك ، لأنه داخل الأراضى الناشفة ، بخلاف البحر المحيط ، فانه محيط بجميع الأراضى ، حتى قال بعضهم : انه متواصل الجريان تحت الأراضى العالية على سطح مائه ، وان حقق بعضهم خلافه لوجود الأراضى اليابسة تحت سطحه ، كبعض أراضى « الموسقو » •

ويسمى هذا البحر الجوانى باللسان التركى « بحر سفيد » « والبحر الأبيض » ، لمقابلته ببحر « بنطش » أو « البحر الأسود » •

وهناك بحر آخر يسمى « بالبحر الأبيض » وهو فى بلاد « الموسقو » ، وهو المراد بالبحر الأبيض ، فى اطلاقات علماء الجغرافيا •

وكان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الأربعاء ، خامس يوم من رمضان ، وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية لاتغادر فى فؤاد (ص ٣٠ ، ٣١) الانسان رعيا ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب

---

(١) فى المطبوعة « بثغر سكندرية » •

حتى يصير في وسطها صبا : محتوية على سائر ما يحتاج اليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب وعلى (الحربجية) (١) ومحصنة بثمانية عشر من المدافع ، وكان مجراهـــا يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح ولتئذ خفيفا فسرنا من غير اشـعار بالسير ، فتوسمنا في وجهها الخير ، ولم نتالم بذلك ، وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء الى اسلامبول ، من تجرع حسوات (٢) عظيمة من ماء البحـــر المالح ، وقال : انه يدفع ألمه ، فكان الواقع أنه لم يحصل لى ألم ، على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة : وربمــا صـــحت الأجسام بالعلل .

ولازلنا نسير ، من غير شدة تحرك واضطراب ، نحو أربعــة أيام ، وبعدها عصفت الرياح ، وتموج ماء البحـــر وتلاعب بذات الألواح ، تلاعب الأشباح بالأرواح . فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض . ووقع عندنا [جميل] (٣) الموقع قوله بعض الظرفاء : « خاطر من ركب البحر ، وأشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة » ! وتحقق عنـــدنا تضمين بعضهم لهزل أبى نواس فى قوله :

رأيت جميع الهائلات محيطـــة
بوطئى لأجل الحمل جارية البحر
فاقسمت عمرى ، لا ركبت سفينة
ولا سرت طول الدهر الا على الظهر .

---

(١) الحربجية : الجند .
(٢) فى المطبوعة « حثوات » والصواب ما ذكرناه .
(٣) زيادة اقتضاها السياق .

غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم ، وما أحسن قول من قال :

لما ركبنا ببحر وكاد من خاف يتلف
على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلف

وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام ، وصار يزور غبا .

ومما يستحسن فى طباع الافرنج دون من عداهم من النصارى حب النظافة الظاهرية ، فان جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبط مصر (١) من الوخم والوسخ أعطاه للافرنج من النظافة ، ولو على ظهر البحر ! فان أهل المركب التى كنا فيها يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى انهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، (ص ٣١ ، ٣٢) ويكنسونها فى غرف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشمونها (٢) رائحة الهواء ، ويزيلون أوخامها ، مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ! .

ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فانهم لايعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة ، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب « العوائد والأخلاق » المؤلف باللغة الفرنساوية ، وعبارته :

« أعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل : أهل « الفلمنك » ، فتجد فى مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض ، المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضا ، وشبابيكهم (القزاز) تغسل دائما ، بل وحيطانهم الخارجية .

---

(١) فى المطبوعة « قبطة » .
(٢) فى المطبوعة « ويشممونها » .

وقد توجد النظافة فى حصة من بلاد الانكليز ، وببلاد الأقاليم المجتمعة (١) من « أمريكة » ، وهى قليلة فى فرنسا والنمسا وغيرهما .

ومن الأمم من هى كثيرة الاتساخ ، وكثيرة القمل ، بل تجد بعض أناس يأكلهم القمل ، ولا يبالون :

وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الأقمصـــة البيض التى تغسل ، ويغير بها كل أسبوع مرة ، وعدة مرات ، فالملابس البيض من جملة ما أنتج النظافة والسلامة من آثار الأوســاخ الرديئـــة » انتهى .

(١) محاولة منه لترجمة كلمة Stats-unis

الفصل الرابع

[فيما رأينا ، من الجبال ، والبلاد ، والجزائر]

قد مررنا على جزيرة « كريد » سابع يوم من سفرنا ، ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان « ايدا » ، الشهير بالأمور الغريبة فى تواريخهم .

ثم فى اليوم الثالث عشر منه ، رأينا جزيرة « سيسيليا » ، (بالمهملتين) ، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين ، وهى مشهورة باللسان العربى باسم « صقالية » ، أو « صقلية » .

وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد « ايطاليا » منفصلة عنها (بالبغاز) المسمى « بغاز مسينة » ، (بفتح الميم ، وتشديد السين المكسورة المهملة ، وسكون الياء ، وفتح النون) ، وهى من أعظم جزائر البحر المتوسط وأخصبها ، ولذلك كانت تسمى فى الزمن السابق « شونة رومة » ، وكانت فى الأعصر السالفة سببا لحرب الرومانيين مع أهل « قرطاجة » ، أى سكان الغرب ، ثم انتهى الأمر الى أن وقعت تحت حكم الروما ، ثم انتقلت منهم الى ملوك اليونان ، ثم فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى (ص ٣٤ ، ٣٥) « النرمندية » ، (بضم النون المشددة وسكون الراء ، وفتح الميم وكسر الدال ، وفتح الياء المشددة) فرقة من أهل الشمال ، وهم سكان اقليم « نرمنديا » الذى هو الآن من ايالات فرنسا ، ثم حكمها بعض ملوك الأسبانيول ، ثم النيمسا ، ثم انتهى الأمر الى أن كانت

جزءا من مملكة « نابلى الكتان » (١) المسماة « بولية » (٢) حتى انها هى و « نابلى » قد يسميان الآن عند الافرنج « السيسيليتين » بتغليب « سيسيليا » على « نابلى » ٠

وفى كتب الجغرافيا أن أهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ، ومدنها فوق الجبال وقد رأينا بهذه الجزيرة على بعد ، فى اليوم الرابع عشر الجبل المسمى « منتثنا » (بفتح الميم وسكون النون ، وكسر التاء الفوقية ، وسكون الثاء المثلثة) و « منتثنا » كلمة مركبة من كلمتين : احداهما « منت » معناها: جبل ، والأخرى « اثنا » فالأحسن كتابتها هكذا « منت اتنا » ٠ وهو مشهور الآن بلفظة « جبيل » ٠ ويظهر لى أن هذا الاسم تحريف « جبل » فهو عربى أدخله المسلمون فى هذه الجزيرة ، وأطلقوه على هذا الجبل ، فبقى بعد خروجهم الى الآن ، وتغير بتحريف أهل هذه الجزيرة له ٠

وهذا الجبل جبل نار ، فانه يخرج منه بالنهار دخان ، وبالليل لهب ، وقد يقذف مواد حجرية محترقة ٠

ثم ان جبال النار تسمى بالافرنجية « الجبال البلكانية » ، ويسمى الجبل النارى « بلكان » ، (بضم الباء الموحدة ، وسكون اللام) ، ويقال « ولكان » ، (بضم الواو) ٠ وقد صحف هذا الاسم بالعربية الى لفظة « بركان » بالراء) ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس ٠ ويسمى « طهمة » (بفتح الطاء ، وسكون الهاء) كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى « مروج الذهب » ٠

وفوهة البركان تسمي بالفرنساوية : « كراتيرة » (٣) (بكاف

---

(١) باضافة « نابلى » الى الاقليم الذى فيه ويسمى : قطانيا ٠

(٢) Pouille

(٣) Cratère.

وتاء فوقية مكسورتين ، وفتح الراء الثانية) ، ولا يوجد جبل النار غالبا الا فى الجزائر ٠

وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاث (١) أقدام ، وأن دورة قاعدة نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنستاويا ودائرة فوهته ربع فرسخ ٠

ثم ان العادة أن جبل النار يهيج ، ثم يسكن ، ثم يهيج ٠ وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ، ثم يهيج ثانيا بعد مضى مدة أعصر ٠ وقد هاج « جبل اتنا » احدى وثلاثين مرة ، ومنها هيجانه سنة ألف وثمانمائة وتسع (٢) بتاريخ الافرنج ٠ وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين ، حيث (ص ٣٤) خرب مدينة « كابان » ، وأهلك ثمانية عشر ألف نفس ٠

وعلامة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقعة والدوى تحت الأرض ، وابتداء التدخين ، أو ازدياده ٠ قال بعض الطبائعية (٣) اننا اذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهى النيران التى تحت الأرض أى المحتقنة فى باطنها ، الا أن آثار الزلازل أوسع من آثار البراكين ، يعنى أن آثار الزلازل تظهر فى متسع عظيم من الأرض ، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد الا بجوار قرب جبل النار ٠

وقد جرت العادة أيضا أن الزلزلة تعظم بقدر البعد عن البركان، وعلل ذلك بعضهم بقوله : ان النار التى تحت الأرض تحاول منفسا ، لتخرج منه ، فان كان فى الأرض بركان فانها تخرج منه ، فتذهب

---

(١) فى الأصل (ثلاثة) وهو خطأ ٠
(٢) فى الأصل : تسعة ٠
(٣) الطبائعية : علماء الجيولوجيا ٠

قوة النار ، فتتفقد الزلزلة ، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين ، فان النيران تحاول منفسا فيها ، فلاتجده ، فترتج الأرض بذلك •

وقال بعض الحكماء أيضـا : ان كلا من الحوادث البركانيـة والزلازل ، صـادر عن جاذبيـة المحاكة ، المسماة بالفرنساويـة : « الاكتريستته » (١) ، بكسر الهمزة ، وسكون الكاف ، وكسر التاء والراء ، وكسر السين ، وفتـح التـاء) ، المسماة : « الرسيس » ، (بفتح الراء المشددة ، وكسر السين) التى هى خاصة الكهرباء عند حكها •

قال بعضهم فى رد هذا القول : انه ينافى ما اعتمـده بعض الحكماء فى بناء الأرض ، ونظم طبقات صخورها •

ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه ، ويقل كلما عظم العلو ، وهذا ما جرت به العادة • والله سبحانه وتعالى أعلـم •

وفى اليوم الخامس عشر رسونا على مدينة « مسينة » ، لم نخرج من السفينة أبدا ، لأنهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية الى بلادهم أن يدخلها الا بعد (الكرتنة) ، وهى : مكث أيام معلومة، لاذهاب رائحة الوباء ، ولكنهم يجيئون للانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن ، فيضعونه فى انـاء فيه خل ونحوه ، مع التحفظ التام (راجع الفصل الأول من المقالة الثانية) •

وقد تزودنا من هذه المدينـة ما احتجنـا اليه ، من الفواكه ، والخضراوات ، والمياه العذبة ••• الى آخره ، وأقمنا بموردتها خمسة أيام وشاهدنا من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية •

---

(١) Electricité

ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب ، وتمكث بعد شروق الشمس ·

(ص ٣٥ ، ٣٦) والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث اننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة اقامتنا ، حتى ان ضربهم النواقيس مطرب جدا ·

وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى ، فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة ، مضمونها ثلاثة معان :

الأول : المجادلة فى أنه لا مانع من أنه الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة ، وأنشأت فيه قولى :

أصبو الى كل ذى جمال
ولست من صبوتى أخاف

وليس بى فى الهوى ارتياب
وانما شيمتى العفاف

الثانى : سكر المحب من معانى خمر عين محبوبه ، واستغناؤه عن الراح براحته ، وانشأت فيه هذا المعنى قولى :

قد قلت لما بدا ، والكاس فى يده
وجوهر الخمر فيها شبه خديه

حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه
ونشوتى من معانى سحر عينيه

الثالث : فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، اذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك · وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له
من علم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت للنفس ، أى الضرب يؤلمكى

ضربُ النواقيس،أم ضرب النوى؟قيسى

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة ، والبحث فى معناها ، ونوع تجانيسها ، وبالجواب عن بعض ألغاز نحوية ٠٠٠ الى آخره ، وليس هنا محل بسط الكلام فى ذلك ٠

ثم سرنا من هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا ، سرنا حتى حاذينا جبل النار ، وجاوزناه ٠

وفى اليوم الرابع والعشرين جاوزنا مدينة « نابلى » ، وقد كانت قديما تسمى باللغة التركية « بوليسة » ، وتعديناها بنحو تسعين ميلا ، فانعكس الريح ، وصار قدام السفينة ، هابا من المقصد لا اليه : لأنه من جهة الهواء ٠ ويعجبنى قول بعضهم :

ومهفهف عنى يميل ، ولم يمل

يوما الى ، فقلت من ألم النوى

لم لا تميل الى يا غصن النقا ؟

فأجاب : كيف وأنت من جهة الهوا ؟!

وقول الصلاح الصفدى :

تقول له الأغصان اذ هز عطفه :

أتزعم : أن اللين عندك قد ثوى ؟!

فقم ، نحتكم فى الروض عند نسيمه

ليقضى على من مال منا مع الهوى

فبانعكاس الريح ، رجعنا الى مدينة « نابلى « بعد أن جاوزناها، ورسونا عندها ، ولم ندخلها ، لما تقدم ٠

وهى من المدن العظمى ببلاد الافرنج ، وملكها يحكم على بلاد جزيرة « صقلية » المتقدمة . ومدينة « نابلى » هى كرسى هذا الملك ، وقد تسمى باللغة العربية . « نابلى الكتان » (١) ، (بفتح الهمزة ، وكسر اللام ، وسكون الكاف) .

وقد كانت مملكة « نابلى » فى يد الاسلام ، ومكثت نحو مائتى سنة ، ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية ، هى ومملكة «صقلية»، ولم تزل الى الآن فى أيدى النصارى الايطاليانية ، حتى انها تسمى : بلاد ايطاليا الجنوبية .

وقد أسلفنا أن مدينة « نابلى » هى احدى (البنادر) الأربعة الأصلية بالبلاد الافرنجية .

ثم رأينـا فى اليوم التـاسع والعشرين جزيرة « قرسقة » ، (بضم القاف ، وسكون الراء وضم السين ، وفتح القاف) التى هى فى حكم الفرنسيس ، وتسمى الآن : جزيرة « قرس » . وقد فتحها المسلمون ، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا ، وهى وطن « نابليون » ، (بضم الباء ، وسكون اللام ، وبالياء) الشهير باسم « بونابارته » الذى تغلب على مصر فى غزوة الفرنساوية ، ثم تولى سلطنة فرنسا ، مع أن أباه كان رئيسا فى (الطوبجية) .

وفى اليوم الثالث والثلاثين رسونا على فرضة « مرسيليا » ، فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما ، ومنها مكثنا خمسة أيام قدام « مسينة » ، (بفتح الميم ، تشديد السين المكسورة ، وفتح النون) ، ونحو يوم قدام « نابلى » ، وتأخرنا كثيرا بلعب الرياح . ولولا ذلك لوصلنا فى أقل من هذه المدة بشىء يسير .

---

(١) راجع ص ٩١ .

المقالة الثانية

الفصل الأول

[فى مدة اقامتنا فى مدينة مرسيليا]

قد رسونا على موردة « مرسيليا » التى هى احدى فرض بلاد فرنسا ، فنزلنا من سفينة السفر فى زوراق صغيرة ، فوصلنا الى بيت خارج المدينة معد (للكرنتينة) على عادتهم • من أن من أتى من البلاد الغربية لابد أن (يكرتن) قبل أن يدخل المدينة •

ولنذكر هنا ما قيل فى (الكرنتينة) بين علماء المغرب ، على ما حكاه لى بعض من يوثق به من فضلاء الغرب • قال : وقعت بين العلامة الشيخ محمد المنـاعى التونسى (ص ٣٧) المالكى ، المدرس بجامع الزيتون ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، المؤلف عدة كتب فى المنقول والمعقول ، وله تاريـخ دولة بنى عثمان ، من مبدئها الى السلطان محمود الحالى ، محاورة فى اباحة (الكرنتينة) وحضرها ، فقال الأول بتحريمها ،والثانى باباحتها ، بل وبوجوبها ، وألف فى ذلك رسالة ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة ، وأقام الأول الأدلة على التحريم ، وألف رسالة فى ذلك ، على اعتماده فيها فى الاستدلال على أن (الكرنتينة) من جملة الفرار من القضاء •

ووقعت بينهما محاورة أيضا نظير هذه ، فى كروية الأرض وبسطها ، فالبسط للمناعى ، والكروية لخصمه •

وممن قال من علمـاء المغـرب بأن الأرض مستديرة ، وأنها سائرة ، العلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات ، بقرب بلاد « تمبكتو » ، وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك ، ضاهى به « متن

خليل » وضاهى أيضا « ألفية » ابن مالك فى النحو ، وله غير ذلك من المصنفات فى العلوم الظاهرية والباطنية ، كأوراد وأحزاب ، كحزب الشاذلى • وقد الف كتابا وسماه : « النزهة » ، جمع فيه جملة علوم ، فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الأرض ، وعلى سيرها ، ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ، ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها •

مات هذا الشيخ سنة ألف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام • وخلفه حفيده المسمى باسمه •

ثم ان هذا البيت الذى كنا فيه (للكرنتينة) متسع جدا ، به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فبه عرفنا كيفية احكام أبنية هذه البلاد واتقانها ، وامتلائها بالرياض والحياض •• الى آخره •

ولم نشعر فى أول يوم الا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها، وذلك : أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض ، فضلا عن الجلوس بالأرض • ثم مدوا السفرة للفطور • ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من (القزاز) ، وسكينا ، وشوكة ، وملعقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، واناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، لكل واحد كرسى ، ثم جاءوا بالطبيخ (ص ٣٨) فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل انسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينه، أو يشرب من قدحه أبدا • ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة •

وبما يشاهد عند الافرنج أنهم لا يأكلون أبدا فى صحون النحاس ، بل ولا فى أوانيه أبدا ، ولو مبيضة ، فهى للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية ·

وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها ، فأول افتتاحهم الطعام يكون (بالشوربة) ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة ، كالخضراوات والفطورات ، ثم (بالسلطة) ·

وربما كانت الصحون مطلية (١) بلون الطعام المقدم ، فصحون (السلطة) مثلا خضر منقوشة بلون (السلطة) ، ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ، الا أنهم يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاى والقهوة · وهذا الأمر مطرد للغنى والفقير ، كل على حسب حاله ·

ثم ان الانسان كلما أكل طعاما فى صحنه غيره ، وأخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر ·

ثم انهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم أنه لابد أن ينام الانسان على شيء مرتفع نحو سرير ، فأحضروا ذلك لنا ·

ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما ، لا نخرج منه أبدا · غير أنه متسع جدا ، وفيه حدائق عظيمة ، ومحال متسعة ، للتماشى فيها ، والتنزه فى رياضها ·

ومن هذا البيت ركبنا العربات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، وسرنا بها الى بيت فى المدينة ، لكنه فى حواشيها ، من القصور المصنوعة خارج المدينة

---

(١) فى المطبوعات : « المطلية » ·

بحدائقها وأدواتها ، فمكثنا منتظرين التوجه الى مدينة « باريس » ومدة مكثنا فى هــذا البيت كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد ، وندخل بعض القهاوى ٠

والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة ، اذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق الا بالغنى التام ٠ وأثمان ما فيها غاليــة جدا ، فـلا يدخلها الا أهل الثروة ، وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والمحاشبش ، ومع ذلك هذه المحال أيضا مجملة تجملا نسبيا ، وقد أسلفت أن مدينة إسكندرية (ص ٤٠) تشبه فى حالها مرسيليا ٠

وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربات معــا فى طريق واحــد والآن صـــارت الاسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك ، ثم ان ســائر القــاعات والأروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مرآة عظيمة كبيرة ، حتى انه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ، ليظهر لها رونق عظيم ٠

فأول مرة خرجنا الى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرائى ، والمشحونة بالنساء الجميلات ، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة ٠

وعادة نساء هذه البلاد : كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته ، والقفا ، وما تحته ، واليدين الى قرب المنكبين ٠

والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهى للرجال ، فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها ، وعلى ما يعمرها ٠

وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهــوة عظيمــة ، دخلناها ، فرأيناهــا عجيبة الشــكل والترتيب ، والقهوجية امرأة

جالسة على صفة عظيمة ، وقدامها دواة وريش وقائمة ، وفي قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمشجرات وبالطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوشة ، وفي هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فاذا طلب الانسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية ، وهى تأمر باحضاره له ، وتكتبه فى دفترها ، وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن ، وتبعثها مع الصبى للطالب ، حين يريد الدفع ، والعادة أن الانسان اذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ، ليلخطه فيها ويذيبه ، ويشربه ، ففعلنا ذلك كعادتهم · وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر · وبالجملة فهو قدح لا فنجان ، وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية لأجل المطالعة فيها ، وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة ، لما أن بها كثيرا من الناس ، فاذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج ، وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما ، فيظن أن هذه القهوة طريق ، وما عرفت أنها (ص ٥٤) قهوة مسدودة الا بسبب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة ، فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الانسان ، كما قال بعضهم فى هذا الشأن :

أبرقع منظر المرآة عنه ... مخافة أن تثنيه لعينى
أقاسى ما أقاسى ، وهو فذ ... فكيف اذا تجلى فرقدين !

وعادتها عند الافرنج ، بسبب تعددها على الجدران وعظم صورتها ، أن تعدد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان ، ومن كلامى :

يغيب عنى فلا يبقى له أثر ... سوى بقلبى ، ولم يسمع له خبر
فحين يلقى على المرآة صورته ... يلوح فيها بدور كلها صور

وقال شيخنا العطار : لم أر ألطف تخيلا فى هذا المعنى من قول ابن سهل :

ألقى بمرآة فكرى شمس صورته فعكسها شب فى أحشائى اللهبا

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة :

رأى حسن صورته فى المرآة فأصبح صبا بها مدنفا
وصير يعقوب اسما له يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس .

ومدة اقامتنا فى مرسيليا بعد (الكرنتينة) شغلناها أيضا بتعلم تقطيع الحروف ، يعنى تعلم تهجى اللغة الفرنساوية .

ثم انه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فان منهم من مات ، ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصا المماليك ، الجورجية والجركسية ، والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها .

وممن تنصر انسان يقال له عبد العال ، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) فى أيامهم ، فلما سافروا تبعهم ، وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة ، ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع عند موته يقول : أجرنى يا رسول الله ! ولعله ختم له بخير ، وعاد الى الاسلام ، فقال بلسان الحال :

الحمد لله ، الحنيفة ملتى والله ربى ، وابن آمنة نبى

ولقد رأيت له ولدين وبنتا ، أتوا في مصر وهم على دين النصرانية أحدهما معلم الآن في مدرسة أبي زعبل .

ومثله ما حكاه لي بعضهم أن سر عسكر المسمى « منو » المتولى في مصر بعد قتل الجنرال « كليبر » (بفتح الكاف ، وكسر اللام ، وكسر الباء) كان أسلم في مصر نفاقا ، كما هو الظاهر ، وتسمى : عبد الله وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر ، وأراد الرجوع ، أخذها معه ، فلما وصل رجع الى النصرانية ، وأبدل العمامة (بالبرنيطة) ومكث مع زوجته ، وهي على دينها مدة أيام فلما ولدت ، وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت : لا أنصر ولدي أصلا ولا أعرضه للدين الباطل ! فقال لها الزوج ان كل الأديان حق ، وان مآلها واحد وهو عمل الطيب . فلم ترض بذلك أبدا فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وأنت مسلمة فعليك أن تصدقي بكتاب نبيك . ثم أرسل باحضار أعلم الافرنج باللغة العربية « البارون دساسي » فانه هو الذي يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك فسالته ، فأجابها بقوله : انه يوجد في القرآن قوله تعالى « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فحجها بذلك ! فأذنت بمعمودية ولدها ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل أنها تنصرت ، وماتت كافرة .

كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام

ومما رأيته من جملة المصريين في مرسيليا : انسان لابس أيضا كالافرنج ، واسمه محمد منطلق اللسان في غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربي الا اليسير ، فسألته عن بلده ببر مصر ، فأجاب بأنه من مدينة أسيوط من أشرافها ، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم ، وهو من أكابر هذه البلدة ، وأمه تسمى

مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره ، ويقول : انه باق على اسلامه يعرف من الأمور الدينية : الله واحد ومحمد رسوله ، والله كريم !٠

ومن العجائب أننى بعد كلامه توسمت فيه الخير ، وكان على وجهه سمة أشراف أسيوط (ص ٤٢ ، ٤٤) حقيقة ، فان صح كلامه كان من أولاد سيدى حريز بن سيدى أبى القاسم الطهطاوى واشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى أبى القاسم ، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير ، ذريته أهل جزيرة شندويل ، وشهرة سيدى أبى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه ، وان لم يذكره سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات ، وكثير من الأشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حريز المتقدم ٠

ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة « السبكتا كل » وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين ، ونذكرها فى الكلام على « باريس » ومكثنا فى هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا الى باريس ٠

الفصل الثانى

[فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس وفى المسافة بينهما]

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا الى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة أو موضعا فيها ، فاما أن يأكلوا على كيسهم أو يدفعوا قدرا معلوما للعربة (١) والقوت مدة الطريق ٠

ثم ان السفر يكون ليلا ونهارا الا وقت الأكل ونحوه ، وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب ، مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات فى غاية النظافة والظرافة ، وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم ، وبالجملة فهى مستكملة الآلات والأدوات ٠

فلما ركبنا عربات السفر ، كل جماعة منا فى يوم ، وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا ، مستمرا على حالة واحدة ، ولا يتأثر الانسان ، كسفر البحر بالرياح ونحوها ، وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث ٠ ومدينة ليون ، على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ، ومن « ليون » الى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ، ومن « مرسيليا » الى « باريس » مائتان وأحد عشر فرسخا فرنساويا ، وقد مكثنا فى « ليون » نحو اثنتى عشرة ساعة ، للاستراحة ، ولم أر داخل هذه المدينة الا بالمرور فيها ، أو من شباك البيت الذى كنا فيه :

ومن لم يستطع أعلام رضوى ليبنزل بعضها نزل السفوحا

---

(١) فى المطبوعة : للعربية ٠

ثم سرنا منها ليلا الى « باريس » ، فدخلناها صبيحة اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا ، وقد مررنا بقرى كثيرة ، وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر ، عظيمة الأبنية مزينة بالأشجار ، وبالجملة فالقرى مسلسلة متصلة ببعضها (١) غالبا ، خصوصا (ص ٤٤) مع جد السير ، حتى ان الانسان لا يظن الا أنه فى بلدة واحدة ، والمسافرون غالبا فى ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق ، وندر تخلفه فى بعض المحال . ثم ان الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة « باريس » غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء « باريس » كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران .

(١) الصواب : سسل بعضها ببعض .

المقالة الثالثة

الفصل الثالث

[فى تخطيط « باريس » من جهة وضعها الجغرافى ، وطبيعة أرضها ، ومزاج اقليمها وقطرها]

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس « بارى » (بالباء الفارسية التى تلفظ بين الفاء والبـاء) ولكن يكتب هـذا الاسم « باريس » ولا ينطق بالسين أبدا فيه ، كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبدا ، خصـوصا حرف السين فى آخر بعض الكلمات ، فانه لا ينطق به أبدا مثلا أتينه » (بامالة التاء) مدينة حكماء اليونان تكتب بالفرنسـاوية (أتينس) أو (باريز) ، وربما قالوا « فارس » • وأظن أن الأوفق كتابتها بالسين ، وان اشتهر على ألسنة غير أهلها قراءتها بالزاى ، ولعل ذلك انما نشأ عن أن السين فى اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا فى بعض الأحيـان ، ببعض شروط ، وان كانت مفقودة هنا الا فى حـال النسبة فان النسـبة الى « باريس » عند الفرنسيس بارزيانى ، وهذا بعينه هو السبب لأن النسبة ترد الأشـياء الى أصولها • ولكن هذه القـاعدة فى النسبة العربية ، والنسبة هنا أعجمية ، وقد مشيت فى بعض أشعارى التى أنشدتها فيها كتابتها بالسين

حيث قلت :

لئن طلقت باريسا ثلاثا فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندى عروس ولكن مصر ليست بنت كفر !

وقلت :

لقد ذكروا شموس الحسن طرا وقالوا ان مطلعها بمصر

(ص ٤٣ ، ٤٤)

ولكن لو رأوها وهى تبدو بباريس لخصوها بذكر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى • (الباريزيين) ، ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى ، وليس هذا الاسم منقولا عن « باريس » اسم رجل شهير كما قاله بعضهم •

ثم ان هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا ، ومن أعظم مدائن الافرنج الآن ، وهى كرسى بلاد الفرنسيس ، وقاعدة ملك فرنسا ، وسيأتى تفصيل ذلك فى محله •

وهى موضوعة فى التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى ، يعنى أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر •

وأما طولها فانه يختلف ، فاذا اعتبرنا خط نصف النهار الذى ينسب اليه الفرنساوية أطوال سائر الأماكن ، وهو خط نصف النهار المرسوم فى رصدهم السلطانى ، وهو يمر بباريس ، فهو حينئذ مبدأ الأطوال على حساب الفرنساوية ، كان طولها صفرا ، وأما اذا حسبنا على خط نصف النهار الذى كان يأخذ بطليموس

الأطوال منه ، ولا يزال (١) الى الآن مبدأ أطوال بعض الامم ، كأهل « الفلمنـك » وهو خط نصف نهار « الجزائر الخالدات » ببحر المغرب ، كانت باريس فى عشرين درجة تقريبا من الطول الشرقى ٠

ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتى الطول والعرض فى (٢) مكان من الأمكنة ، وثمرة ذلك ، وان كان يخرجنا عما نحن بصدده فنقول :

اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وأنها غير صادقة التكوير ، ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها صورة الأرض ٠

ولامكان تقسيم الأرض ، وتسهيل معرفتها ، توهموا فيهـا دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ، ومحورا وقطبين ورسموها على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك ، وطرفاه هما القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالى ، والآخر القطب الجنوبى ، ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين الى الآخر ٠ وعلة تسميتها بذلك أنه اذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط وقت الظهر بذلك المحل ، ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض ٠

وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصـاف ألنهار ، وهى التى بينها وبين مركزهـا تواز على محور الأرض ٠ (ص ٤٥) وأعظمها دائرة الاستواء وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين ٠ وهى تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمال ، والآخر النصف الجنوبى ٠ ثم ان دوائر أنصاف

---

(١) فى المطبوعة : « ولا زال » ٠
(٢) فيها : « من ؟ ٠

النهـار ، والدوائر المتوازية كسـائر الدوائر ، تنقسم الى ثلثمائة وستين درجة وكل درجة تتجزأ الى ستين دقيقة ، وكل دقيقة الى ستين ثانية ، وكل ثانية الى ستين ثالثة ، وهكذا •

وللافرنج تقسيم آخر جديد ، وهو : أن الدائرة تنقسم الى أربعة أرباع ، وكل ربع يتجزأ مائة ، تسمى درجات مئينية ، وكل درجة مائة دقيقة مئينية ، وكل دقيقة مائة ثانية كذلك ، وهكذا • وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الأعشارى ، والحساب المترى ، والأول أشـهر اسـتعمالا ، وبهذه الدوائر العظمى يتحـدد الطول والعرض وذلك أن العرض هو بعد الدائرة متوازية عن المتوازية التى هى دائرة الاستواء ، فان أخذته جهة الشمال كان عرضـا شماليا ، ونهايته تسعون درجة ، وان كان جهة الجنوب فجنوبى ، ونهايته كذلك ، وأما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على أنه أولى • وهو شرقى ، وقدره مائة وثمانون درجة ، وغربى وقدره كذلك ، وقد وضع أصحاب الجغرافيا فى الكرة (١) أو الخرطات على كل دائرة متوازية ما تبعد به من الدرجات عن دائرة الاستواء ، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الأولية •

وقد رسم كما أسلفنـاه « بطليموس » الحكيم دائرة نصف النهار الأولية فى « الجزائر الخالدات » ، فلما انكشفت بلاد أمريكة اختار الافرنج أن يجعل كل قطر من الأقطار خـط نصف نهارهم الأولى ببلادهم ، لينسبوا اليها ما عداها ، كما صنع الفرنساوية ، فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس ، وبقيت منهم أمم كالفلمنك على أخـذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات •

---

(١) الأصل : « الأكرة » •

وفى الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ينسب اليه ما عداه ، ويكون فى قطر لا عمار بعده معلوم أو ممتـاز بمزية كمكة المشرفة ، ثم ان كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن أخذها بتفاوت الأوقات ، وذلك أنه من المعلوم ان الشمس أو الأرض ، كما يقوله الافرنج ، تقطع حركتها اليومية فى أربع وعشرين ساعة فهى تقطع من الدائرة التى ترسمها فى سيرها خمس عشرة (ص ٤٦) درجة فى كل ساعة فتقطع درجة كل أربع دقائق يعنى أنه اذا دخل وقت الظهر فى القاهرة مثلا فلا يدخل وقته فى المكان الذى يبعد عنها جهة الغرب بخمس عشرة درجة الا بعد ساعة ويدخل بعد ساعتين ، فيما يبعد عنها بثلاثين درجة ، وهلم جرا . وبعكس ذلك فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق ، فانه اذا كان الظهر فى القاهرة يكون قد مضى ساعة بعد الظهر فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق بخمس عشرة درجة ، ويكون مضى ساعتان فيما يبعد عنها فى هذه الجهة بثلاثين درجة الى آخره .

فلنذكر هنا حينئذ متى يكون الظهر فى « باريس » اذا كان الظهر فى أصول البلاد الغربية منها والشرقية ، وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد ، فيقال : اذا كان وقت الظهر فى مصر القاهرة لا يدخل وقته فى « باريس » الا بعد مضى ساعتين الا أربع دقائق ، واذا كان الظهر فى « اسلامبول » كان فى « باريس » بعد مضى ساعة وست وأربعين دقيقة ، واذا كان فى بغداد كان دخوله فى باريس بعد ساعتين وثمان وأربعين دقيقة وفى حلب اذا دخل الظهر لا يدخل فى « باريس » الا بعد ساعتين وثلث ، واذا دخل الظهر فى الجزائر لا يدخل فى باريس الا بعد أربع دقائق تقريبا ، واذا دخل فى « تونس » فيدخل فى « باريس » بعد مضى نصف ساعة ودقيقتين ، ووقت الظهر فى « أصفهان » يدخل فى « باريس » بعد مضى ثلاث ساعات واثنتين وعشرين دقيقة ، واذا كان فى مدينـة « بكين »

(بكسر الباء والكاف) كرسى ملك الصين ، يكون فى « باريس » سبع ساعات واحدى وأربعين دقيقة ، وفى مدينة الباب الأبواب (١) تكون ساعة وثمانيا وأربعين دقيقة ، وفى مدينة « رومة الكبرى نصف ساعة وثماني دقائق وهــذه البلاد على الشرق من مدينــة « باريس » ٠

وأما البلاد التى على غربيها فاذا كان الظهر فى مدينة « مدريد » كرسى ملك الأندلس فانه يكون فات وقته فى « باريس » بأربع دقائق واذا كان فى مدينة « أشبونة » كرسى البرتوغال فانه يكون فات وقته فى باريس بخمس دقائق ونصف ، واذا دخل وقته فى « فيلادلفياء » (بكسر الفاء ، وسكون الياء ، وفتح اللام ، وكسر الدال المهملة ، وسكون اللام ، وكسر الفاء) مدينة بأمريكة ، فانه يكون قد مضى بعده فى « باريس » خمس (ص ٤٧) ساعات وثلاث عشرة دقيقة ، واذا كان وقته فى مدينة « ريوجانيرو » (بكسر الراء وضم الياء ، وكسر النون ، وسكون الياء) كرسى سلطنة « ابريزيلة » فى أمريكة ، فهو ثلاث ساعات تقريبا ، واذا كان نصف النهار فى جزيرة « كنفو » فى « أمريكة الموسقو » يكون نصف الليل فى « باريس » فانهما متقاطران ٠

والمسافة بين « باريس » و « اسكندرية » سبعمائة وتســعة وستون فرسخا فرنساويا وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتســعة فراسخ ، وبينها وبين مكــة المشرفة سبعمائة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين « اسلامبول » خمسمائة وستون فرسخا ، وبينها وبين حلب ثمانمائة وستة وستون فرسخا ، وبينها وبين « مراكش » سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين « تونس » ثلثمائة وسبعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « لوندرة » كرسى الانكليز

---

(١) وتسمى باب الأبواب ، وهى بحر قزوين ٠

مائة فرسخ ، وبينها وبين مدينة « بتربرغ » (١) كرسى الموسقو خمسمائة وستة واربعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « موسقو » كرسى الموسقوبية القديم ستمائة فرسخ وبينها وبين مدينة « رومة » كرسى البابا ثلثمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « بجة » (٢) كرسى النيمسا ثلثمائة وخمسة وعشرون أيضا ، وبينها وبين مدينة « نابلى » ثلثمائة وأربعة وثمانون فرسخا .

وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانى عشرة قامة ، ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة ، فليست فى غاية الحرارة ، ولا فى غاية البرودة ، فان أقصى درجات الحر فيها احدى وثلاثين درجة ونصفا ، وهذا نادر . والحر الأوسط تسع وعشرون درجة ، وأقصى درجات البرد بها فى الغالب اثنتا عشرة درجة ، وندر بلوغه ثمانى عشرة (٣) ، والبرد الأوسط سبع درجات .

ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات فى الذوبان الى حد فوران الماء ، ودرجات البرد من شروعه فى الجمود .

والأغلب فيها عدم صحو الزمن وكثرة الغيوم ، بحيث تمكث الشمس فى الشتاء عدة أيام لا تنكشف ولا يرى جرمها غالبا ، فما كأنها الا ماتت وعاش الليل ، ويحسن هنا قول بعضهم

قلت والليل مقيم ودجاه غير سارى
أعظم الخالق أجر الـ ـخلق فى شمس النهار
فلقد ماتت ، كما ما ت غرامى واصطبارى (٤)

---

(١) Pétersbourg.

(٢) هى مدينة فيينا .

(٣) المطبوعة : » ثمانية عشر » .

(٤) هنا فى الأصل المطبوع أبيات من الشعر فيها استطراد عن الموضوع والمشروع .

(ص ٤٨) وأما المطر فانه لا ينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة ، واذا نزل فى الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره الى جعل أعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه الى أسفل الدور • وفى سائر البيوت والطرق مجارى وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق « باريس » محدودة بمجار ، كالقناة الجارية المياه ، خصوصا وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر ، فلا تتشرب المياه أبدا ، بل تسير الى هذه المجارى ، ومنها الى البالوعات •

وتغير مزاج الهواء والزمن فى « باريس » أمر عجيب ، فانه قد يتغير فى اليوم الواحد (ص ٤٩) أو مع ما بعده حال الزمن ، مثلا : يكون فى الصباح صحو عجيب لا يظن الانسان تغيره فلا يمضى نصف ساعة الا ويذهب بالكلية ، ويخلفه المطر الشديد ، وقد يكون حر يوم من الأيام أربعا وعشرين درجة ، ولا يصل اليوم الآتى الى اثنتى عشر (١) • وهكذا ، فقل أن يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج أهلها كما سيأتى •

ومعلوم أنه ينبغى أن يتحفظ الانسان من ضرر هذا التغير وان كان هواء « باريس » فى الجملة طيبا مناسبا للصحة ، ومع أن حرها لا يصل الى حر القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف أبدا ، ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد الى شدة الحر •

وأما بردها فانه وان كان فى طاقة الانسان تحمله من غير عظيم تعب فانه لا يمكن للناس الشغل الا بالتدفئة بالنار ، فلذلك كان فى سائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية فى الأود ، ليوقد فيها النار ، وهى مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر فى الأودة دخان الحطب (٢) فان هذه المداخن نافذة الى الهواء ، فيجذب الهواء

---

(١) فى المطبوعة : « اثنى عشر » :

(٢) يقصد الوقود من فحم ونحوه •

الدخان ، ويطرده خارج البيت ، وفى بعض الأود يصنعون نوعا من الفرن له باب من الحديد ويلحقون به قصبة من صفيح ، وينفذون هذه القصبة في فرجة تتصل بالهواء ، فيضعون الخشب فى الفرن ، ويغلقون باب المحمى فيصعد الدخان جهة القصبة ، ومنها يصعد الى الخلاء فتسخن الفرن وتحمى قصبتهـا فتسخن الأودة أو الرواق ونحوهمـا (١) أو عندهم نـوع آخـر عجيب يســمى « المداخن المسقوبية » (٢) • وعاد المدخنة أو الفرن المسماة عند الفرنساوية « بوالا » (٣) أن ظاهرهـا مطلى طـلاء عظيما فى غاية النظافة • والمدخنة دائما مرخمة الجوانب ، ولها عرصة من حديد • وهى عند الفرنساوية لحسن صناعتها من زينة المحل فيكتنفونها في الشتاء • ومن أعظم اكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار ، ولا عجب فى ذلك ، نسأل الله انقاذنا من حر نار جهنم • ولله در القائل :

النار فاكهـة الشـتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيـا فليصطل

وأحسن من قال :

دخلت يومـا على صـديق والبرد يفـرى بـه الفريـا
فأوقـد النـار قلت كـلا لأنت أولى بهـا صليـا

(ص ٤٩) وبالجملة فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنسـاوية جزء من المؤونة ، فهذا ما يستعينون به على البرد •

وأما ما يستعينون به على التوقى من ضرر المطر فهو المظلات المسماة فى مصر بالشمسيات ، يعنى وقايات الشمس ، وتسمى

---

(١) المخطوطة « ونحوها » •
(٢) المسقوبية أى الموسكوفية •
(٣) Poéles

تلك عند الفرنساوية وقاية المطر ، وفى الحر تمشى النساء بالشمسيات ، ولا يمكن للرجال ذلك أبدا ٠

وأرض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة ، فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة الا وبه بستان عظيم الأشجار والخضراوات وغيرها ؟ وأغلب النباتات الغريبة يوجد بهذه البلدة ، فانهم يعينون بتطبيع (١) النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم ، ومثلا شجر النخل لا يخرج الا فى الأقاليم الحارة ، ومع ذلك صنع الفرنساوية كل الحيل ، حتى زرعوا منه شيئا ، وان كان لا يثمر ، الا أنه ينفعهم فى الجوع اليه عند قراءتهم فى عم النباتات ، وقد اشتهر عندنا أن النخل لا يوجد الا ببلاد الاسلام ، ويرد عليه أنه عند كشف بلاد أمريكة وجدوا بها نخلا غير منقول ، كما هو الظاهر من بلادنا ، فانظر هذا مع قول الفاضل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ما نصه ، نخل شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت الا فى بلاد الاسلام انتهى ٠ ولعل النخل الموجود فى غير بلاد الاسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند أهل النباتات ، والمقصور على بلاد الاسلام نخل التمر ، لمناسبة مزاج (٢) قطرها فتأمل ٠

(ص ٥٣)

وبقرب أرض باريس عين ماء معدنى باردة الماء ٠

ويشقها نهران أحدهما وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين (بفتح السين) والآخر نهر « غوبلان » قال بعض علماء الكيميا من الافرنج ان أقل المياه خليطا بالمواد الخارجية « نيل مصر » و « نهر الكنك » ببلاد الهند ونهر « السين » « بباريس »

---

(١) هو ما يسمى بأقلمة النباتات ٠

(٢) المزاج : المناخ ٠

ويتفرع على ذلك اعتبار مائها فى فن الطب من الأمور المناسبة لصحة الأبدان ، وأنه يحسن تطبيب وطبخ الخضراوات بها دون غيرها ، وتحليل الصابون بها للغسل ونحو ذلك ·

وفى نهر السين بداخل باريس ثلاث جزائر احداها تسمى « جزيرة السيتة » وكان بها باريس القديمة « والسيته » « بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية » معناها المدينة فكأنه قيل جزيرة المدينة وشتان بين هذا وبين النيل ، والروضة والمقياس ، فان نزهة الانسان فى الروضـة والمقياس لا تضـاهى ، لأن الخليج (ص ٥٠) يعبر مصر ، والسين يعبر « باريس » الا أن نهر السين بتمامه يشق « باريس » وتجرى به (١) السفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيدة والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة وشتان أيضا بين ماء « النيل » و « السين » من جهة الطعم وغيره فان ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله كما هو العادة فى ماء نهر السين لكان من أعظم الأدوية · وأقول أيضا انه فرق بعيد بين طعم ماء نهر « السين » وماء العيون والقطوع والسواقى ببلاد صعيد مصر · وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين تربة مصر و « باريس » ومياههما وفواكههما الا فى نحو الخوخ واقليمهما ، فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم · وحسن تدبيرهم ، واعتناؤهم بتعهد مصـالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شيء ، فانظر مثلا الى نهر « السين » فانه وان كان نزهة فى أيام الحر فانه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود والانعقاد حتى انه يمكن أن يداس عليه بالعربات ، وانظر الى أشجار هـذه المدينة فانها تكون مورقة فى أيام الحر ، وفى أيام البرد لا تجدها

(١) المطبوعة : « بها » ·

الا قرعة رديئة المنظر ، كأنها حطب مصلب وهذا في سائر البلاد الباردة ، وقال بعضهم فى هذا المعنى :

سألت الغصن لم تعرى شــتاء — وتبدو فى الربيع وأنت كاسي؟!
فقال لى : الربيــع على قــدوم — خلعت على البشــير به لبــاسى

(و) قال بعضهم فى وصف يوم برد وأجاد : فى يوم برد جعله الله منه فى حمى • ومجال حرب كان الظفر فيــه لابن ماء الســما • كأنمــا ماجت الأرض فرحا لانهــلال السحاب ، وقويت أوتادها اذ صار لها بالسماء من جبال المطر أمد الأسباب • وكان السماء قــد رأت ما بالأرض من السرور فبعثت تهنيها بصــــوت الرباب ، فلكم تفتحت أعين النور لعيون الغمام الساجمة ، ولكم استمرت به مسرة واستقرت به سائمة • ولكم ضحكت الأرض لبكاء السماء بمدامعها ، وظهر البشر على وجهها •

وانظر الى زمن تلك المدينة ، فانه دائما معتم فى سائر أيام الشتاء وغالب أيام الحر ، فاذا تنزه الانســـان ساعة تنكد ساعة أخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق ، وانهطال المطر والصواعق ، الا أن الثلوج بها ومجارى البالوعات تقى من الوحل المضر ، فليست (ص ٥١ ، ٥٢) كأرض جيلان التى (١) قال فيها الشاعر :

أقمت بأرض جيــلان زمانـــا — ولم يك ذاك منى غــير جهــل
فلم أحصــل على خــير متــاح — سوى سح الغيوث وخوض وحل

وأهلها لا يبالون بذلك ، فيقال فى سائر أيامها ما قاله بعضهم فى وصــف يوم شــديد البرد من أنه يوم يجمد خمره ، ويخمد جمره • ويخف فيه الثقيل اذا هجر ، ويثقل فيه الخفيف اذا هجم • الا أن الفرنساوية يكثرون من الملاهى فى ليالى الشتاء ، لأنهم يبذلون

---

(١) فى المطبوعة : « الذى » •

جهدهم فى التوقى من مضارها ، نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير ، فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر أم الدنيا • وقد مدحتها مدة اقامتى « بباريس » بقصيدة وهى :

ناح الحمام على غصون البان … فأباح شيمة مغرم ولهان
ما خلته مذ صاح الا أنه … أضحى فقيد أليفه ويعانى
وكأنه يلقى الى اشارة … كيف اصطبارى مذ نأى خلانى
مع أننى والله مذ فارقتهم … ما طاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صب أصون تلهفى … حتى كأنى لست باللهفان
وبباطن الأحشاء نار لو بدت … جمراتها اما طاقها الثقلان
أبكى دما من مهجتى لفراقهم … وأود ألا تشعر العينان
لى مذهب فى عشقهم واريته … ومذاهب العشاق فى اعلان
ماذا على اذا كتمت صبابتى … حتى لو أن الموت فى الكتمان
ما أحسن القتلى بأغصان النقا … ما أطيب الأحزان بالغزلان
قالوا أتهوى؟ والهوى يكسو الفتى … أبدا ثياب مذلة وهوان
فأجبتهم لو صح هذا اننى … أختار ذلى فيه طول زمانى
والذل للعشاق غير معرة … بل عين كل معزة للعانى
أصبو الى من حاز قدا أهيفا … يزرى ترنحه بغصن البان
وأحن نحو شقيق تم خده … قد نم فيه شقائق النعمان
ويروقنى أبدا نزاهة مقلتى … فى حسن طلعة فاتك فتان
أمسى وأصبح بين شعر حالك … ومنير وجه هكذا الملوان
ولطالما قضيت معه حقبة … ونسيم مصر معطر الأردان
زمن على به لمصر (فديتها) … حق وثيق عاطل النكران
لو شابهت عيناى فائض نيلها … لم توف بعض شفائه أحزانى

أو لو حكى قلبى بحار علومها طربا لما أخلو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموس أشرقت وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهمو مصر فصارت روضة وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا منها «العروسى» بهجة الأكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم « عطارها حسن » شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره لأجبت بالتصديق والاذعان
هذا لعمرى ان فيها سادة قد زينو بالحسن والاحسان
يأيها الخافى عليك فخارها فاليك ن الشاهد « الحسنان »
ولئن حلفت بأن « مصر » لجنة وقطوفها للفائزين دوانى
و«النيل» كوثرها الشهى شرابه لأبر كل البر فى ايمانى

(ص ٥٤) وأما مصر فانها سليمة من مكاره شرد « باريس » ، كما أنها خالية أيضا عن الأمور المحتاج اليها فى وقت الحر ، مثل الاستعانة على تطرية الزمن ، فان أهل « باريس » مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن عدة بزابيز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة ، وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشحها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها (قد صار الآن جل ذلك بمصر) (١) .

ثم من غرائب نهر « السين » أنه يوجد فيه مراكب عظيمة ،

---

(١) تعليق زاده على النص بعد عودته الى مصر .

فيها أعظم حمامات « باريس » المشيدة البناء وفى كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة ، وسيأتى ذكرها •

ومن الأمور المستحسنة أيضا أنهم يصنون مجارى تحت الأرض توصل ماء النهر الى حمامات أخرى وسط المدينة ، أو الى صهاريج بهندسة مكملة • فانظر أين سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال ، فان ذلك أهون مصرفا ، وأيسر فى كل زمن وشطوط هذا النهر داخل المدينة ، مرصفة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين ، يطل المار بجانبها على النهر ، وهى محكمة البناء •

وقناطر هذا النهر « بباريس » ست عشرة قنطرة ، فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات ، ولها أربعمائة (ص ٥٥) قدم من الطول وعرضها سبعة وثلاثون قدما ، ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسندة على حجارة من أحجار النحاتة ، وقد بنيت هذه القنطرة فى خمس سنوات ، وصرف فيها ثلاثون مليونا من الفرنكات ، يعنى ثلاثين ألف ألف فرنك • وتسمى هذه القنطرة قنطرة « استرلتز » ، سميت بذلك باسم محل غلب فيه « نابليون » ملك « النيمسا والموسقو » ، فيقال لهذه الواقعة واقعة ، « استرلتز » ، ويقال واقعة السلاطين الثلاثة • ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون •

« واسترلتز » بلدة وقعت هذه النصرة بقربها ، وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور ، فلذلك أبدوها ببناء هذه القنطرة ، فتسميتها بهذا الاسلام للتذكار وبقاء الآثار •

ونهر السين يشق « باريس » نحو فرسخين ، وعرضه فيها مختلف ، فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا •

وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا (١) فى كل ثانية . أو ألف ومائتان فى كل دقيقة .

وسطح أرض « باريس » صنفان فالأول « جبس » والثانى طين ماء نهر « السين » بعد زيادته . وأرضها مركبة من راقات مختلفة ، فالراق الأول مزرعة طينية مرملة ذات حصى الثانى : طفل مختلط بجبس وصدف . الثالث : طفل صوانى . الرابع طفل جيرى صدفى . الخامس : حجر الجير المخلوط بصدف . السادس : البحر الملح . السابع : طين شبيه بالابليزى الثامن : من طباشير وجير مفحوم طباشيرى .

ثم ان هذه المدينة مشقوقة ومحوطة (٢) بصوفف أشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية ، لا يخرج بعضها عن بعض أبدا ، وعلى منوالها بطريق « شبرا » وفى « أبى زعبل » و « جهاد اباد » (٣) وهى مورقة فى أيام الحر يستظل المار بها من حر الشمس ، وتسمى « البلوار » (٤) (بضم الباء وسكون اللام) فيوجد فى « باريس » (بلوارات) خارجة كالسور للمدينة و (بلوارات) داخل المدينة ، ومحيط (البلوارات) الخارجة أبلغ من خمسة فراسخ ونصف ، وعدد (بلوارات) « باريس » اثنان وعشرون (بلوارا) .

وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعنى الميادين ، كفسحة « الرملية » (٥) بالقاهرة ، فى مجرد الاتساع ، فى مجرد الاتساع ، لا فى الوساخة . وعدها خمسة وسبعون ميدانا ولهذه المدينة أبواب خارجية برانية كباب النصر بالقاهرة ، وهى

---

(١) البرمق : الاصبع بالتركية .
(٢) فى المطبوعة : « ومحتاطة » .
(٣) كذا فى المطبوعة وهى اشبه بان تكون اسم بلد بالهند .
(٤) Boulevard
(٥) كانت تحت القلعة .

ثمانية وخمسون بابا وبهذه المدينة أربع قنايات من صنف (ص٥٢) المسماة عيونا ، وثلاثة دواليب لجرى المياه بالنواعير الا أنها عظيمة ، وستة وثمانون صهريجا ، ومائة وأربع عشرة حنفية على الطرق ٠

ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون أهلها دائما فى الزيادة البينة ، وأرضها فى الاتساع ، وعماراتها فى التكميل والتحسين ، وهمتهم (١) جميعا فى توسيع دائرتها بالأبنية العظيمة ، لاعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن ، قال الشاعر :

ان البناء اذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

وبذلك يكثر أهلها ، فان أهلها الآن يعنى أهل الاستيطان بها ، فوق مليون من الأنفس ٠ ومحيطها سبعة فراسخ فرنساوية ، ومطايا هذه المدينة ، كغيرها ، من بلاد فرانسا العربات ، الا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ، ولا تزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع ، وسيأتى تفصيل ذلك فى غير هذا المحل ٠

---

(١) فى المطبوعة : وهم ثم ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٧ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3370 — 1

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فأختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بيت المثقفين المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستنير و الحق الشريفة .

بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشاً

الغلاف للفنان : محمود الهندى